«الثَّقَافَةُ العَرَبِيَّة»: مَصْدَرُ الأَزْمَة

٣-١) مَدْخَل:

إنّ الفَشَلَ المُتَكَرِّرَ لجُهُودِ «النَّهْضَة» وبرامِج «التّنْمية» على مدى قَرْنَيْنِ يُوجِبُ ضرورة مُرَاجَعَـةِ «الحالة الثّقافيّة»؛ فبُلُوغُ أيِّ ثقافـةٍ لحالةٍ من العَجْزِ كالحالة التي بَلَغَتْهَا «الثّقافة العربيّـة» دَفَعَ زُمَراً مُتَنَوِّعَةً من المُثقّفين العرب إلى المُطالَبَةِ بمُرَاجَعَةِ «مُقَوِّمَاتِ الثّقافة» وتَشْخيصِ مكامِنِ الدَّاء، ومن بينهم إبراهيم البليهـي إذْ يقول: (تَشْتَدُّ حاجة العرب إلى إعادة تَكْويـن وبِناء ثقافتهم لاسْتبعاد عناصِر الإعاقة الحضاريّة التي تُكَبِّلُ الفِكْرَ والفِعْل؛ فهذه الثّقافة بما تراكم فيها خلال القُرُون من قُيودٍ وأَقْفَالٍ وبطبيعة تَكْوينها منذ البِدايات الأولى للعَصْر الجاهليّ تَحْتَاجُ إلى مُرَاجَعَةٍ عميقةٍ وشَامِلَةٍ ودقيقة)[٤٨]. ولا نَحْتَاجُ إلى كبير جُهْـدٍ لنُدْرِكَ أنّ «الثّقافـة العربيّة» اليوم هي ثقافةٌ قَاصِرَةٌ عن فَهْـمِ «رُوح العَصْر»؛ فهي تَتَرَنَّـحُ تحت تَأْثيـر «فَجْوَةٍ مَعْرفيّةٍ» خطيرةٍ يَعْتَبِرُهَا زكي نجيـب محمود أبْرز أوجه «أَزْمَةِ المُثقّـف العربيّ» حيث يقول: (إنّني لا أرى - بين المُعْضِلات التي تتحدَّى المُثقّفَ العربيّ فـي زماننا - ما هو أشدُّ تَعْقيداً وأَعْسَرُ حَلاً، مـن مُحاولته أنْ يَجْمَعَ بين طَرَفَيْن، يكادان يكونـان مُتَضَادَّيْـن، في صِيغةٍ حياتيّةٍ وَاحِـدةٍ، ألا وهما المُحَافَظَةُ علـى هُويّته التّاريخيّة مـن جِهَةٍ، والحِرْصُ - في الوَقْتِ نفسه - على أنْ يُعاصِرَ دُنْيَاهُ التي تَعُجُّ بمخابيرِ المعامِل وعَجَلاتِ المصانِع)[٣٨]. إنّ ذلك «التَّحَدِّي المَعْرفيّ» يُمَثِّلُ - دون شَكٍّ - «التَّحَدِّي الأَكْبر» للمُجْتمعـات النّامية، ويَفْرِضُ عليها أنْ تَتَصَدَّى له بكُلِّ القُوى المُؤَثِّرة لتَعْمَلَ على تَأْسيسِ «تَكْويـنٍ ثقافيٍّ» يَحْمِلُ رُؤىً تَسْتَشْرِفُ المُسْتَقْبَل، وتُدْرِكُ مُقْتضياته، وتَهْتَمُّ بتوليدِ الآليّاتِ

والمُعْطيـاتِ القَادِرَةِ على تَأْسيسِ «الخصائِص الإيجابيّة» وعلى رأْسِهَا الحِرْص على جَعْلِ «ثقافة العلوم والتّقْنية» عُنْصُراً مُؤَثِّراً في التّفاعُلات الفِكْريّة السّائِدَة.

وبمُرَاجَعَـةٍ مُتَأنِّيَةٍ لطُرُوحَاتِ «النّهْضَويّيـن»، وعبْر تَحْليلٍ دقيقٍ لاهْتماماتِ المُثقَّفين عبْـر القَرْنَيْـن الماضِيَيْـن نَلْمَسُ – بشَـكْلٍ مَأْساويٍّ – إغْفَـالَ «البُعْدِ الثّقافـيّ» في تَحْفيزِ الابْتكارات ودَعْمِهَا، وتَأْصيلِ «القِيَمِ العِلْميّة» وتَطْويعِهَا، وتَهْيئةِ «البيئةِ الخِصْبَة» لتَنْميةٍ تَمُدُّ جُذُورَهَا إلى دَاخِل تُرْبَةِ المُجْتمع، وتتفاعلُ مع مُكَوِّناتِه لتَأْسيسِ «العَقْل العِلْميّ» القَادِرِ على الاسْتِجَابَـةِ الفَاعِلَةِ لتحدّيات عَصْرِه. إنّ المُتأمِّلَ لمـا سُمِّي «إشْكَاليّة التّنْمية»، والمُرَاقِبَ لظُـرُوفِ تَطَـوُّرِ «الحركة العِلْميّة» ونجاحِها في دُول «العَالَم الأوَّل» لا يَسْتطيعُ إلاّ أنْ يَخْلُصَ إلـى نتيجةٍ وَاحِدَةٍ؛ وهي الحقيقةُ البدهيّـةُ التي أَدْرَكَهَا الفلاّحون والمُزارِعون منذ عُصُورٍ سحيقـةٍ، وأَهْمَلَتْهَا «الدُّول النّامية» بشَكْلٍ وَاضِحٍ ومُثيـرٍ للاسْتِغْرَاب؛ وهي أنّك لا تَسْتطيعُ أنْ تَجْنِيَ ثِمَارَ غَرْسَةٍ حُرِمَتْ من عناصِرِها الحيويّة ومُناخِها المُلائِم وبيئتِها المُناسِبة.

إنّ «النّشاط العِلْمـيّ والتّقنيّ» نشاطٌ بشريٌّ يَحْتَاجُ إلى بيئةٍ تَحْتضنه، ومُناخٍ يَرْعاه، ودعائِـم تَحْمله، ووسائِط تَنْقله؛ وكُلُّ هذا يَتَطَلَّـبُ مُجْتمعاً مُتَفَهِّمَاً لطبيعةِ العلوم، مُدْرِكَاً لشُرُوطِهَـا، مُتَحَمِّسَـاً لقضاياها، مُتَفَاعِـلاً مع تَطَوُّرِهَا. لقد كان الخطـأ الذي وَقَعَتْ فيه «الـدُّول النّامية»، وما زالت تُصِرُّ عليه، أنّها تَصَوَّرتْ أنّ «العلوم والتّقْنية» مُجَرَّدُ صناديق مُغْلَقَةٍ ومصانِع مُنْعَزِلَةٍ وأجْهِزَةٍ مُتَطَوِّرَةٍ ومبانٍ مُشَيَّدَةٍ، وظَنّتْ أنّ مُجَرَّدَ الشِّراء والاسْتيراد سيحلّ الإشْكال، واعْتَقَدَتْ أنّ الاكْتفاء بالتّعْليم والتّدْريب والبُحُوث في «المجالات العِلْميّة والتّقنيّة» سيَفْتَحُ أمامها الأبـواب المُغْلَقَة، ويُدْخِلُهَا في مَرْحلة الإنْتاج والتّطْوير، ويُحْدِثُ «النّقْلَةَ المَطْلُوبة» إلى مَصَافِّ «الدُّول المُتَقَدِّمَة».

إنّـه من الغريب أنْ يَقَعَ تشارلـز سنو[٣٢]، وهو المُنَظِّرُ لـ«ثقافـة العلوم»، في الخطأ نفْسـه إذْ أنّه تَصَوَّرَ أنّ مُهِمّةَ تَحْديثِ المُجْتمع، ونَقْلَهُ إلى مُجْتمعٍ صِناعِيٍّ، يَحْتاجان فقط إلى عَدَدٍ كَافٍ من العُلماء والمُهندسين والتّقنيّين. لقد تجاهل تشارلز سنو في رُؤيته هذه دَوْرَ «ثقافـة المُجْتمع» في تَفْعيـلِ «التّنْمية» وتَنْشيطِ «الحركة العِلميّـة – التقنيّة»، فنَجِدُهُ

يقـول: (إنّ العادات والخَلْفيّـة التّقنيّة يقومان بدَوْرٍ ضئيلٍ يَدْعُـو إلى الاسْتِغْرَاب)، ويرى سنـو: (أنّ الثَّـوْرَةَ العِلْميّةَ على مُسْتـوى العَالَمِ تَحْتاجُ كأولويّةٍ قُصْـوَى إلى رَأْسِ المال في مُخْتلـف أشْكاله، بما في ذلك رَأْس المال الـلازم للتّجْهيزات الميكانيكيّة). وأمّا تجارِبُ «الـدُّول النَّاميـة»، على مدى مـا يَرْبُو على نِصْـفِ قَرْنٍ بعد «الحَـرْبِ العالَميّـة الثّانية»، فإنّهـا تُثْبِـتُ أنّ للعَوامِل الثقافيّـة والسّياسيّة والاجْتماعيّـة دَوْراً أكْبر بكثيـرٍ ممّا اعْتَقَدَهُ تشارلـز سنـو، وهي فـي الوَاقِع الاعْتبارات التـي تُمَثِّلُ أبْـرز عناصِر «إشْكَالِيّـة التّنْمية»، وتَشْـرَحُ أسْبَابَ إخْفَاقِ برامِج «التّنْمية» وخُطَطِهَا في تَحْقيقِ مُعْظَمِ أهْدافِها. إنّ التّجارِب المُعَاصِرة لقضايا «التّنْميـة» تُبْرِز أهميّة «المُشارَكَة الجماهيريّة» في «العمليّة التّنْمويّة»؛ فكُلّمَا ازْدَادَتْ أنْمَاطُ تلك المُشَارَكَةِ ومِساحتُها، اكْتَسَبَتْ «الحركة التّنْمَويّة» عُمْقاً وفَاعِليّةً وتَأَلُّقاً؛ ولذا يُصْبِحُ لـ«الثّقافة» القَادِرَةِ على التّأْثيرِ على «الجُمْهُور» الدَّوْرُ الأبْرَزُ في تَحْديدِ خصائِص «التّنْمية البشريّة» وتطوُّرِهـا؛ فـ«التّنْمية البشريّة» هي أهمّ «مُحَدِّدَاتِ التّنْمية» علـى الإطْـلاق، وتُبَيِّنُ تجارِبُ «الـدُّول المُتَقَدِّمَة» الدَّوْرَ الرّياديّ لـ«المَـوارِدِ البشريّة» في عمليّةِ النُّهُوضِ والتّطوُّرِ والتّقدُّم.

من الجَليّ أنّ أسْبَابَ التَّخَلُّفِ والضَّعْفِ وحالة «العَجْزِ العربيّ» تَكْمُنُ في مجْموعةٍ من جوانِب الخَلَل؛ فهناك خَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ التّعْليميّة»، وخَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ البَحْثيّة»، وخَلَلٌ في «المَنْظُومَةِ الإداريّة»، وخَلَلٌ في غير ذلك من مَنْظُومَاتٍ سياسيّةٍ وإعْلاميّةٍ واقْتصاديّةٍ واجْتماعيّـةٍ؛ وأمّـا الخَلَلُ الرَّئيسُ، الذي نَزْعُمُ في هذا الكِتـاب أنّه المَسْؤولُ الأوَّلُ عن كُلِّ أنْواعِ الخَلَلِ الأُخْرى، فهو الخَلَلُ القَائِمُ في «المَنْظُومَةِ الثّقافيّة» في «المُجْتمعات العربيّة».

٣-٢) «الإشْكَالِيّة الكُبْرى» في «الثّقافة العربيّة»:

لكي لا تَجْرُفُنَا دَوَّامَاتِ «العَجْز العربيّ» إلى متاهاتٍ كلاميّةٍ وحماسيّةٍ، فإنّ علينا أنْ نَضْبِطَ إيقاع عَواطِفنا لنتعرَّف على أهمّ بصمات هذا «العَجْزِ» لنجد أنّنا جميعاً مَسْؤولون عنـه، وكُلُّنا - أيضاً - مَعْـذُورون؛ فـ«الإشْكَالِيّة الكُبْرى» تَكْمُنُ في ثقافةٍ سائِدَةٍ تعيشُ على «الشَّكْليّـات» بكُلِّ أنْماطِهـا، وتَقْتَاتُ على «الاسْتِهْلاكِ» بكُلِّ أبْعـادِه بما في ذلك اسْتِهْلاك

الكلمـات، وغزارة المُترادِفـات، والانْحِباس في بوتقة «التّنْظير» التـي لا تَسْتطيعُ أنّ تَلْتَحِمَ مـع ساحة «الفِعْل»؛ فلقد هَيْمَنَ الجَدَلُ الأدبيّ والسّياسيّ والتّاريخيّ والفِقْهيّ على تفاعُلاتِ «الثّقافة العربيّة» وتَشْكيلِها، ولا يَنْبَغِي لنا أنْ نَسْتَغْرِبَ - إنْ استمرّ الحال على ما هو عليه - أنْ يَبْقَى وَاقِعُ الأُمّة على حاله من العَجْزِ والرّكُودِ والتَّخَلُّف.

إنّ «الإشْكَالِيّة الكُبْرى» هي في ثقافةٍ تَمَكَّنَتْ - عبْر قُرُونٍ - من الاسْتِحْواذِ على «العَقْلِ العربـيّ» ليَبْقَى «الإنْسان العربـيّ» أسيراً للأشْـكالِ التّقْليديّة المَعْهُـودة، والفِكْرِ النّمَطِيّ السّائد، وضُرُوب الشّعْر، ودِراسـاتِ النَّثْرِ والسَّجْعِ والبُكَاءِ على الأطْلال؛ فبَقِيَتْ «الثّقافة» وأصْحابُها يُراوحون مكانهم؛ لأنّهم يَسْتَخْدِمُون أدواتِ زمنٍ مضى وانْقضى، وراحوا - بكُلِّ صُنُـوفِ التّفاخُرِ والهِجَاءِ والمديـحِ - يَرْقُبُون أحْداث زمانهم ومُنْجزاته فهي لا تَعْنيهم إلاّ في «الجَانِبِ الاسْتِهْلاكيّ»، ولا تتقاطعُ مع اهْتماماتهم إلاّ في «الجَانِبِ الشَّكْليّ».

ليسـ غريباً - إذاً - أنْ يكون حالُ «العَقْلِ العربيّ» كحـال «الشِّعْرِ» الذي اشْتَهَرَ بأنّه «دِيـوانُ العرب»[٤٩]؛ ففيه «عُلُومُهم وأَخْبَارُهم وحِكَمُهم»، ولذا فمن المُهمّ أنْ نَتَعَرَّفَ على طبيعة هذا «الدِّيوان» لنعرف خصائِص « العَقْلِ العربيّ»؛ فـ«الشِّعْرُ»، وفْق النَّاقِدِ الأنْدلسيّ حـازم القرطاجني،: (لا يُقَاسُ بمِعْيارِ الصِّدْقِ أو الكَـذِبِ وإنّما هو لإحْدَاثِ انْفِعَال)[٥٠]؛ ولأنّ (أَعْـذَبَ الشِّعْـرِ أَكْذَبَه)[٥١] فقـد اخْتَلَطَتْ المَقَاصِدُ في «صِنَاعَـةِ الكلام» التي برع فيهـا العرب، وضَحَلَـتْ المعاني، وضَاعَتْ الألْـوانُ بين الكلماتِ، لتَصْطَبِـغَ بلَونٍ بَاهِتٍ لا يَشُـدُّكَ إليه إلاّ ما يُذَكِّرُكَ بـ«مَرْحلة المُراهَقـة» عندما كنتَ تَسْعَى جَاهِداً لرَصِّ الكلماتِ وحَشْدِهَا؛ ليُدْرِكَ أستاذُ «مَادَّة التّعْبير» حَجْمَ رصيدِك اللُّغويّ، وغزارةَ اطِّلاعِك الأدبيّ.

فـي ذلك الخِضَـمّ الكلاميّ العَارِمِ تَغْرَقُ الأفْكَارُ الحَيّةُ القَـادِرَةُ على تَحْريكِ الوَاقِعِ الرّاكِد، ومُعَالَجَـةِ المُشْكلاتِ المُتفاقِمَة، وتَأْسيسِ «العَقْلانيّـة» اللازِمة، وتَأْصيلِ «الفِعْلِ النّاجِـز». ويَرْتَـدُّ «العَقْلُ العربيُّ» علـى ذاته ليَنْغَمِسَ فـي عَواصِفِه العَاطِفيّـة وصِراعاتِه الأزليّـة ونماذِجِه الماضويّة وأوهامِه الجَانِحَة، مُتَباكِياً تارةً، ومُسْتَعْلِياً تارةً أُخْرى، ولكنّه - فـي كُلّ الحـالات - يَتَمَتَّـعُ بحصانةٍ عاليةٍ ضـدّ الاسْتفادةِ من التّجـارِب، ويتماهى مع

«قُصُورٍ ذاتـيٍّ» عَالٍ يَحْجُبُ عنه الاسْتِشْرَافَاتِ والإشْرَاقَـاتِ والتَّحَدِّيَاتِ، فهو يعيشُ دوماً تحـت الوَهْـمِ القَابِعِ في مَقُولـة: (لنا الصَّـدْرُ دون العَالَمِينَ أو القَبْـرُ). وفي هذا الإطار نَسْتَحْضِرُ مَقُولة عبد الله الغذّامي: (ولنا أنْ نَتَصَوَّرَ ما جَلَبَهُ علينا إلْغاء السُّؤال الأخْلاقيّ وسُؤال المَعْقوليّة في أهمّ المُكَوِّنات الثقافيّة للإنْسان العربيّ الذي صار دِيوانه غير مَعْنِيٍّ بهذه الأسْئلة، واكْتَفَـى بالجَمَالِيّةِ وما فيها من دَغْدَغَةٍ للخيال عبْر خِطَابٍ مَجَازِيٍّ مُزَيَّفٍ ومُشَوَّهٍ، غير عمليٍّ ولا إنْسانيّ)[٤٩].

قالـوا لنـا إنّ (المَعْنَى فـي بَطْنِ الشّاعِـر)، أو في جُعْبَـةِ الأديب اللّوذَعِـيّ، أو في فَمِ الخطيـب المُفَوَّه؛ ومن ذلك الخيال الجَامِح، والبُنَى اللّغويّـة المُؤثِّرة، عانى «العَقْلُ العربيُّ» ليس فقط من قُدْرَتِهِ الفَذّةِ على التّعَامُلِ مع (المُمْكِنَاتِ الذِّهْنِيّةِ كمُعْطَيَاتٍ وَاقِعيّة)[١]، وفْق طَرْحِ محمد عابد الجابريّ، ولكن «العَقْلَ العربيَّ» ذهب - أيضاً - إلى أبْعد من ذلك فجعل - في رأْيي[٥٢] - (المُسْتحيلات المَادِّيّة حَقَائِق مَلْمُوسَة) عبْر ازْدِرَاءِ المَنْطِق، وجُمُوحِ العَاطِفَة، واللجوءِ إلى «ما ورائيَّاتٍ» تَنْتَظِرُ حُدُوثَ «المُعْجِزَات»، وتَنْأى عن «الأَخْذِ بالأَسْبَاب».

٣-٢-١) بين الأمانيّ والحقائق:

لقـد اسْتَقَرَّ في خَلَدِ «الإنْسـان العربيّ» - منذ زمَنٍ بعيدٍ - أنّ مُجَـرَّدَ التّمنّي يُحَقِّقُ الغايـة، وإنّ الإسْهَـابَ الوَصْفيّ في التّطلُّعات، أو المُبَالَغَـةَ الكَمِّيّة في الحِسابات، تَنْقُلان الأهْـداف إلى عَالَمِ الوَاقِع، وأنّه إذا نَطَقَ بالكلمة واتَّخَـذَ القرار فإنّ الإنْجَازَ هو تَحْصيلُ حَاصِـلٍ وسيَسْعَـى - تِلْقائيّـاً - ليُجَسِّـدَ المَطْلَب، ويُحَقِّـقَ الغاية، ويُبَـدِّلَ الوَاقِع. إنّ هذا النّـوْعَ من «التَّفْكيـر العَبَثِيّ» المُعْتَمِدِ علـى الأمانيّ هو ما نَتَجَ عنـه - بالضّرورة - ضَعْفُ إنْجازاتِ الخُطَـطِ التّنْمَويّة، وضَآلَةُ مَرْدودِ البرامِج التّطْويريّـة، وتَفَاقُمُ إشْكالاتِ الحياة في مُجْتمعاتٍ عربيّةٍ مُعَاصِرَةٍ تَزْدَادُ تَعْقيداً في تفاعُلاتِها ومُتطلَّباتِها ومُشْكلاتِها.

لقـد اخْتَلَطَ الأَمْـرُ على «العَقْلِ العربـيّ»؛ فقضيّةُ (كُنْ فيكون) هـي ممّا اخْتَصَّ به الخَالِـقُ عَـزَّ وجَـلَّ، وأمّا سُنَنُـهُ الكَوْنيّةُ فهـي لا تُحَابِي أحداً ولـو كان أَكْثر النّاس وَرَعاً،

وأَقْدرهـم علـى الوَعْظ، وأَمْضاهم فـي ساحات البلاغة. وفي هذا الخَلْـطِ المُرَوِّعِ تَجلّتْ – فـي الخُطَطِ والإسْتراتيجيّاتِ العربيّة – نمـاذِجَ الوَصْفِ المُسْهَبِ والإنْشائيّاتِ البَرّاقَةِ، تَدْعُمُهَـا دائماً كلمة (سوف) التي تَحَوَّلَتْ مع الأيام إلى مَادَّةٍ للتّنَدُّر، ولكنّها بَقِيَتْ مُعَبِّرَةً عـن العَجْزِ في الاهْتمـام بالتَّفاصيلِ الصَّغيرة، والآليَّاتِ المُحَـدَّدَة، والمُتَابَعَةِ الصَّارِمَة، والرَّقَابَةِ النَّزيهة.

إنّ السّاحة العربيّة تَضِجُّ بالإسْتراتيجيّات الكُبْرى، ولكنّها تَفْتَقِرُ إلى الآليّاتِ الوَاضِحَةِ والقَـادِرَةِ – عبْر تراكُماتِها ومعاييرِها وتفاصِيلِها – علـى تَحْويلِ تلك الإسْتراتيجيّات إلى حقائِق مَلْمُوسةٍ ووقائِع مَحْسُوسةٍ، فالبَوْنُ شَاسِعٌ بين «ثقافةٍ نَظَريّةٍ – لَفْظيّةٍ» وبين «ثقافة عِلْميّةٍ – عمليّة»؛ فالأولى تَتَنَعّشُ بنسيمِ الكلمة، وتَسْبَحُ في بُحُورِها، وتَطْرَبُ بما تُنْجِزُهُ في «البِنَاءِ اللّفْظِيّ»، وهي تَأْتِي طَيِّعَةً لَيِّنَةً لـ«العَقْلِ العربيّ». وأمّا «الثقافة العلميّة – العمليّة»، فلها مُصْطلحاتٌ دقيقةٌ، ومعايير مُحايدةٌ، ومُؤشّراتٌ مُنْضَبِطَةٌ، ومقاييس تَجْريبيّةٌ، وهي تَمْتَنِـعُ على «العَقْلِ العربيّ»؛ لأنّ خصائِصَ «الفِكْرِ العِلْميّ» الصّارِمَةِ لا تُناسِبُ «مُحَدِّدَاتِ العَقْلِ العربيّ» التي تَدْفَعُ به لأنْ يكون مُنْفَلِتاً في رِحَابِ الخيال ودُنْيا الكلام.

عندما نقول إنّ «أَزْمَةَ العَقْلِ العربيّ» هي «أَزْمَةٌ ثقافيّةٌ» بامْتيازٍ، فإنّ حقائِق الماضي ووقائِـع الحَاضِـر وتحدّيات المُسْتَقْبَـل تُؤَكِّدُ تلك الحقيقـة المَرَّة تِلْوَ المَـرَّة؛ فقد انْشَغَلَ «العَقْـلُ العربـيُّ» بـ«القضايا الكُبْـرى» في كُلِّ مكانٍ، ولكنّـه أَهْمَلَ «التّفاصيـل الصَّغيرة» فـي مُجْتمعِهِ وبَلْدَتِهِ وحَيِّـه، وغَابَتْ عنه الآليّـاتُ المَحْكُومَةُ بعناصِر المُسَاءَلَـةِ والمُتَابَعَةِ والتّقْييـم، ليُصْبِـحَ النّاتِجُ هو تَكْريس «حالة التَّخلُّف» وذلك علـى الرّغْم من انْتشار كلمة «إسْتراتيجيّـة» التـي غَـزَتْ كُلَّ مِضْمارٍ ومَحْفَـلٍ ومُؤسَّسةٍ في العَالَم العربـيّ. ولا شَكّ أنّ الإسْتراتيجيّـات – برُؤاهـا العامّة وطُمُوحاتِهـا الشّامِلة وأَهْدافِها المُحَـدَّدَة – ضرورةٌ لا مناصَ عنها، ولكنّها تَتَحَوَّلُ إلـى مَصْدَرِ إحْبَاطٍ عندما تُخْفِقُ فـي تَحْقيقِ غاياتِها؛ وهنا تَكْمُـنُ أهميّةُ «التّفاصيل الصَّغيرة» التي يَجْرِي إهْمَالُهَـا – عادةً – في «الثّقافة العربيّة»، فميـاهُ السّدِّ تُصْبِحُ شُؤماً على البِلادِ والعِبَـادِ إذا انْعَدَمَتْ قنواتُ التّصْريفِ القَادِرَةِ على تَوجيهِها وتَرْشيدِها وتَوزيعِها ليَعُمّ خَيْرُهُا، وتَتَحَقّق فَائِدَتُهَا.

فـي «العَالَم المُتَقَدِّم» تَوَفَّرَتْ تلك القنوات والآليّـات عبْر «أَنْظِمَةٍ مُؤسَّسِيّةٍ» و«ثقافةٍ عِلْميّـةٍ» تراكمتْ فيهـا الخِبْراتُ والمُمارَسات، وتطوَّرتْ فيها معاييـرُ المُرَاجَعَةِ والتّقْييم، وتحقَّقـتْ لها آليّـاتُ التّصْحيح والنُّموّ؛ وأمّا في «العَالَم العربيّ» حيـث تَنْعَدِمُ المُؤسَّسَاتُ الفَاعِلَة، وتغيبُ «الثّقافةُ العِلْميّةُ»، فإنّ الأداء يَبْقَى رهينةً للاجْتهاداتِ الفَرْديّة، والمُبَادَرَاتِ العَشْوائيّة، والقـراراتِ المِزاجيّة. ولذا فإنّ مُهِمّةَ المَسْؤول، في أيِّ قطاعٍ كان في «العَالَم المُتَقَـدِّم»، هي أهْون كثيراً من مُهِمّةِ نظيره فـي «العَالَم العربيّ»، فصَاحِبُنَا الأوَّل يَحْظَى ببِنْيةٍ تحْتيّةٍ قَادِرةٍ على الإسْهَامِ في تَشْكيلِ «الإسْتراتيجيّة» واسْتيعابِها، وتَصْويبِ مسيرتِها، وتوظيفِ آليّاتِهـا، بينما صَاحِبُنَا الثّاني يَتَحَمَّلُ - بالضّرورة - عِبْءَ وَضْعِ «الإسْتراتيجية» وتَهْيئـةِ «الثّقافة المُناسِبة» من ناحيـةٍ، وعِبْءَ صِناعةِ «الآليّات» ومُرَاقَبَةِ عملِها من ناحيةٍ أُخْرى، وذلك إذا افْتَرَضْنَا تَوَفُّرَ حُسْنِ النّيّة ونزاهةِ المَقْصَدِ ونظافةِ اليد وكفاءَةِ الأداء. وبتأمُّـلِ طبيعة هذه «المَسْؤوليّـة المُزْدَوجَة» التي يَتَحَمّلُهَا المَسْـؤولُ في «العَالَم العربيّ»، نَسْتطيـعُ أنْ نَفْهَـمَ سبب فَشَلِ تلك الوعود الزّمنيّة التـي يَقْطَعُهَا المَسْؤولُ على نفْسه عند تسلُّمـه زِمَام مهامّه؛ فمنْها الثُّلاثـيّ من السّنين ومنْها الخُماسيّ مـن الأعْوام، وكُلُّهَا قد تَنْطَلِـقُ من نَوايا حسنةٍ وعزيمـةٍ صَادِقةٍ وغاياتٍ وجيهةٍ، ولكن الأَمْـرَ الذي يغيبُ - عادةً - عـن اهْتمامِه، أو كفاءتِه، هو «التّفاصِيلُ الصَّغيرةُ» المَدْعُومَةُ بـ«المعايير العِلْميّة»؛ ممّا يقـودُ إلى اسْتمرارِ المُشْـكلات أو اسْتفحالِها وصُعُوبةِ التّغلُّبِ عليها، وكُلُّ ذلك يَغْتَالُ تلك الوعـود، ويَئِدُ تلك الآمال، ويُحَوِّلُهَا إلى مُجَـرَّدِ دُعَابَةٍ أو طُرْفةٍ يتناقلُها النّاس وهم يبثُّون هُمُومهم اليوميّة.

وأمّـا إذا سألنا: (هل يُمَثِّلُ هذا الطَّرْحُ شيئاً جديـداً على السّاحة العربيّة؟)، فإنّنا نجـدُ أنّ الإجابة تَأْتي جَازِمَةً بالنَّفي، فلقـد طَرَحَ مالك بن نبيّ - قبل ما يَرْبُو على نِصْفِ قَـرْنٍ - مِثْل هـذه التّصوُّرات، عندما أشار إلـى «المَنْطِقِ العمليّ» فقـال: (نحن أَحْوجُ ما نكـون إلى هذا المَنْطِقِ لأنّ «العَقْلَ المُجَرَّدَ» مُتَوفِّرٌ في بلادنـا، غير أنّ «العَقْلَ التّطْبيقِيّ» الـذي يتكوَّنُ في جوهره من الإرادة والانْتباه شيءٌ يكاد يكون مَعْدُوماً)[٢٨]. وأَكْثر من هذا وأَعْمق هو ما قاله مالك بن نبيّ في السِّياق نفْسه: (إنّنا نرى في حياتنا اليوم جَانِباً كبيراً

من «اللافَاعِليّة» في أعْمالِنا، إذْ يَذْهَبُ جُزْءٌ كبيرٌ منْها في العَبَثِ وفي المُحاولاتِ الهَازِلَة. وإذا مـا أردنا حَصْراً لهذه القضيّة فإنّنا نرى سببهـا الأصيل في افْتِقَادِنَا الضَّابِطَ الذي يَرْبِطُ بين الأَشْياء ووسائِلِها، وبين الأَشْياء وأَهْدافِها، فسياستُنا تَجْهَلُ وَسَائِلَهَا، وثقافتُنا لا تَعْـرِفُ مُثُلَهَا العُلْيـا، وفِكْرتُنَا لا تَعْرِفُ التّحْقيق، وإنّ ذلك كُلَّهُ ليتكرَّر في كُلِّ عملٍ نَعْمَلُهُ وفي كُلِّ خُطْوةٍ نَخْطُوها)[٢٨].

٣-٢-٢) مَأْزِق «الخِطاب العربيّ»:

ليستْ المُشْكلة - في نظري - أنّ «الثّقافة العربيّة» اهْتَمّتْ بالجَوانِب الأدبيّة التّقْليديّة والمُسْتَحْدَثَـة، أو أنّهـا حَرَصَتْ على الاسْتطْـرادات النّظريّة، فكُلُّ ذلـك أَمْرٌ مَطْلُوبٌ في حيـاة أيِّ أُمّةٍ مع أهميّة التّطْويرِ والمُرَاجَعَةِ والنّقْد؛ ولكن المُشْكلة تَكْمُنُ في اقْتِصَارِ هذه «الثّقافة» وتفاعُلاتِها على ذلك الجَانِب بينما «رُوح العَصْر» تَنْبِضُ بحركةٍ عِلْميّةٍ كَاسِحَةٍ، ونشاطٍ تِقنيٍّ مُهَيْمِن. لقد وَقَعَ «الخِطَابُ الثّقافيُّ العربيُّ» في مَأْزِقٍ مع عَصْرِه؛ ففي الوَقْتِ الـذي لا يَمْلِكُ فيـه أيَّ خياراتٍ تُذْكَـر، ولا يَمْتَلِكُ مفاتيـح التّأْثير على وَاقِعِـهِ ومُشْكلاتِهِ وتحدّياتِـهِ العالَميّة، فإنّـه يُكَابِرُ في عدم الانْصياع لقَواعِد «اللّعبـة المُعَاصِرَة» والالْتزام بضَوابِطِهَـا وتَأْمين المُتطلَّباتِ الدُّنْيـا لتَحْقيقِ «النّقْلَةِ النّوْعيّـة» المَنْشُودَة، ويَنْصَرِفُ - كالعـادة - نحـو ما يُتْقِنُ ويُجِيـدُ في الشَّكْوى والوَلْوَلَـةِ والتّمنّي والتّنْظيـرِ والانْغِمَاسِ في تَجَلِّيَاتِ «نظريّة المُؤامَرَة».

إنّ «الإشكَاليّـة الكُبْـرى» هـي فيما تُعانيه «الثّقافـة العربيّة» من انْفِصَـام بين وَاقِعِ حالِهـا وطبيعةِ عَصْرِهـا؛ إذْ وَضَعَتْ بينها وبين «الفِكْرِ العِلْميّ» حَاجِـزاً سميكاً، وصَنَعَتْ - بسبـب الرّهْبَـة أو الاسْتِعْلاء - فَجْوَةً بين تفاعُلاتِها وبيـن انْطلاقاتِ «الحركة العِلْميّة» ومُعْطياتِها، وهذا هـو «البُعْدُ الغَائِبُ» في «الثّقافة العربيّة». لقد خَرَجَ «العَقْلُ العربيُّ» من رَحِـمِ «القبيلة»، وبَقِيَ مُتَمَسِّـكاً بقِيَمِهَا وأَنْسَاقِهَا بالرّغْم ممّا نجدُه على السّاحة اليوم من «حَدَاثَةٍ» يَدَّعِيهَا، أو «تَدَيُّنٍ» يَزْعُمُه؛ وكما كَتَبْتُ في أكْثر من مقامٍ ومقالٍ[٥٢] إنّ «التّعصُّبَ» يَبْـرُزُ - فـي كُلِّ الأحْـوال - كخصيصـةٍ أساسٍ في تَكْويـن «العَقْـل العربـيّ»؛ فالتَّزَمُّتُ

الدِّينيّ، والتَّعَصُّبُ القوميّ، والتَّطَـرُّفُ المَذْهَبِيّ، والإقْصَاءُ الفِكْريّ، والتَّشَنُّجُ السّياسيّ، والصَّرْعَـاتُ الحَدَاثِيّة، والانْفِلاتُ اللّيبراليّ؛ كُلُّ ذلك ليس إلاّ امْتِدَادَاتٌ لأبْعَادِ «العصبيّة القَبَلِيّة» في مُحاولاتٍ بَائِسَةٍ للتّأقْلُمِ مع التّفاعُلاتِ الحياتيّة المُسْتَجِدَّة.

وهكـذا نجدُ أنّنا عندما نَتَحَدَّثُ عـن «العَقْلِ» ومُحَدِّدَاتِهِ فإنّنا - بالضّرورة - نَتَحَدَّثُ عن «الثّقافة»؛ فـ«البِيئةُ الثّقافيّةُ» هي التي تُشَكِّلُ «العَقْل»، وتُغَذِّي مُكَوِّناته، وتُوَطِّدُ دعائِمَه، وتُبَـرِّرُ أحْكَامَه، وتَصْنَعُ مُحَفِّزاته؛ وعند رُكُودِ «الثّقافـة»، أو انْعِدَامِ فَاعِليّتِهَا الاجْتماعيّة، فـإنّ «العَقْـلَ» يَرْكُدُ في المَنْطِقَـةِ ذاتها، ويَبْقَى حبيس مِساحاتِهـا وزواياها. تلك الحقيقة البدهيّـة، التي أَهْمَلَتْهَـا مُحاولاتُ «النّهْضَة» بشَتّى أشْكالِهـا ومدارِسِها، تُؤَكِّدُ أنْ لا مَخْرَجَ لهـذا «العَقْلِ» من أزْمَتِـه، ولا مَنْفَذَ من «العَجْزِ العربيّ» إلى رِحَـابِ العُنْفوانِ والإنْجاز، إلاّ عبْر تَأْسيس «ثقافةٍ تَنْمَويّةٍ» مُشبعةً بنبْضِ العَصْر، ومُتفاعِلةً مع طيفِه الفِكْريّ المُهَيْمِن من علومٍ وتقْنيةٍ، ومُسْتَوعِبَةً لأبْعَادِ «الزَّمان» و«المكان» والقِيَمِ الجوهريّةِ الثّابِتَةِ لهذه الأُمّة.

ستَبْقَى «الثّقافةُ العربيّةُ» ثقافةً عَرْجَاءَ، بَلْ مَشْلُولَةً لا تَقْوَى على الحَرَاك، ولا تَسْتطيعُ الدُّخُـولَ فـي حَلَبَةِ سِبَـاقِ «العَوْلَمَة» إذا لـم تَسْتَوْعِبْ «الفِكْـرَ العِلميّ» وثقافتَـه؛ وستَبْقَى «الثّقافـةُ العربيّةُ» - في غِيَـابِ «الفِكْرِ العِلْمـيّ» وثقافته - أشْبه بالمَرْكَبَـةِ الفَاخِرَةِ التي نَفَـدَ وَقُودُهَا وتعطَّلتْ مُحَرِّكَاتُهَـا، وسنُطِلُّ على كُلِّ إنْجازاتِ الآخَرين بمُفْـرَدَاتٍ إنْشائيّةٍ تَطْـرَبُ لها الأسْمَـاع، وببياناتٍ بلاغيّةٍ يتنافسُ فيها المُتَنافِسُـون، ولكنّها - على صعيد الفِعْلِ وأرْضيّةِ الوَاقِع - تُمَثِّلُ رصيداً مُتراكِماً من «العَجْزِ العربيّ».

٣-٣) حالة «الانْفصام» في «عمليّة التَّنْمية»:

إنّ المُواطِـنَ في «المُجْتمعـات العربيّة» يعيشُ على هَامِش تفاعُـلاتِ «التّنْمية» دون حماسٍ لتَحْقيـقِ أهْدافِها، والمُشارَكَـةِ في صِناعتِهـا، والوَعْي بخصائِصِهـا، ممّا يُؤَدِّي إلـى «حالة انْفِصَام» بينـه وبين «ديناميكيّـة التّنْمية»؛ فجُلُّ اسْتفادته منْهـا هي خِدْمَاتٌ وتَجْهيزاتٌ يتمّ تَأْمينُها عبْر اسْتيرادِ الآلات والمُعِدَّات، واسْتِقْدَامِ الخِبْراتِ والمهاراتِ من

وراء البِحَار، وما يَتَرَتَّبُ على ذلك من نَهَمٍ مُتزايدٍ لاسْتِهْلاكِ مُعْطياتِ «الحياة العَصْريّة» دون تَأْسيسٍ «البِنْية الإنْتاجيّة»، وتكونُ المُحَصِّلَةُ النّهائيّةُ هي تَفَاقُم «الوَجْهِ الاسْتِهْلاكيّ» لـ«التّنْمية» واسْتِفْحَاله، بينما يَضْمَحِلُّ «الوَجْهُ الإنْتاجيّ» ويَتَوَارَى.

لقد احْتَلَّتْ «التّنْمية الاقْتصاديّة» مكان الصَّدارَةِ في طُرُوحَاتِ «المُجْتمعات النّامية» وخُططهـم التّنْمَويّة وذلك على حِسَابِ جَوانِب «التّنْمية» الأُخْـرى الاجْتماعيّة والسّياسيّة والثقافيّـة، ويُمَثِّلُ ذلـك أحد الأسْباب الجوهريّة في تَفَاقُمِ «إشْكَاليّـة التّنْمية» واسْتِفْحَالِ أعْرَاضِهَـا؛ ولـذا فإنّ اهْتمامنا الرّئيس في هـذا الكِتاب هو بَلْوَرَةُ القناعـةِ التي تَعْتَبِرُ أنّ انْفِصَـامَ «التّفاعُلات الثّقافيّة» عن «الشُّرُوطِ التّنْمَويّة» هو أبْرز أسْبَابِ هذه «الإشْكَاليّة»، والمُعَـوِّقُ الرّئيسُ لكُلِّ طُرُوحَـاتِ «التّنْمية» وبرامِجِهـا بأوجهِها المُتَعَدِّدَةِ علـى الأصْعِدَةِ الاقْتصاديّة والسّياسيّة والاجْتماعيّة والتّعْليميّة والإعْلاميّة وغيرها.

إنّ «التّنْميـة» حركةٌ فَاعِلَةٌ تَدِبُّ على الأرْض، وتَسْعَى إلى تَغْيير أنْمَاطِ الحياة، وتَهْتَمُّ بتَطْويـر قُدْرات الإنْسان وتَأْمين احْتياجاته وتوفيـرِ سُبُلِ الرّفاهية للمُجْتمع؛ ولذا فإنّها لا تَسْتطيعُ إلاّ أنْ تكون مُتفاعِلَةً مع الإنْسان، ومُتلاحِمَةً مع وعيه وإمْكاناته، فكما يقول أسامة عبـد الرحمن: (لا يَكْفِي أنْ يكون «مَفْهُوم التّنْمية» وَاضِحـاً في أذْهانِ صَانِعي القرارات، وإنّمـا يجب أنْ يكـون «مَفْهُوم التّنْميـة» وَاضِحاً في أذْهان مُنَفِّذِي القـرارات وفي أذْهان القطـاع الأكْبر من المُجْتمع. ولا يُغْنِي مُجَـرَّدُ الوضوح وإنّما يجب أنْ يَصْحَبَ ذلك اقْتِنَاعٌ فِعْليٌّ والْتِزَامٌ أكيدٌ بـ«التّنْمية»، وسَعْيٌ دَؤوبٌ لتَحْقيقِ مراميها وأهْدافِها)[١٢].

لا خِـلاف بين المُهْتَمّين بدِراسات «التّنْمية» فـي أنّ «العُنْصُرَ البشريّ» هو الأساس فيهـا، فكمـا ورد في «تَقْريـر التّنْمية الإنْسانيّـة العربيّة لعام ٢٠٠٢م»[١٥] فـإنّ: (التّنْمية الإنْسانيّـة هي تَنْمية النّاس، ومن أجل النّاس، ومن قِبَـل النّاس، وإذا كان يَتَعَيَّنُ أنْ يكون النّاس هم مِحْوَرُ «التّنْمية» فلا بدَّ أنْ يكون لمُشارَكَةِ النّاس دَوْرٌ رئيسيٌّ في تطوُّرِها). من ذلك المُنْطلق فـإنّ «التّنْمية البشريّة» تَتَطَلَّبُ تَكْوين قُـدْراتٍ ومهاراتٍ، وتَحْفيزَ مُبادراتٍ وابْتكاراتٍ، وتَأْسيسَ قِيَمٍ إنْتاجيّةٍ وأخْلاقيّات عملٍ، وتوظيفَ كُلِّ ذلك توظيفاً فَاعِلاً بحيث

تَتَحَقَّـقُ مصالِحُ المُجْتمع، وتَتَقَلَّصُ إشْكَالاتُه، وتَعُـمُّ المنافِعُ على مُخْتلف الأصْعِدَة. ولأنّ الإنْسان يتحرَّكُ دَاخِلَ بيئةٍ ثقافيّةٍ، ويتفاعلُ مع عناصِرِها سَلْباً وإيجاباً؛ فتتحدَّدُ معاييرُه وقِيَمُه ومُمارَساتُه وأعْرافُه، فإنّ «مَفْهُوم توجيه الثّقافة»[٢٨]، الذي تَطَرَّقْنَا إليه في الفَصْل الثّانـي من هذا الكِتاب، يُصْبِحُ ذا أولويّةٍ مُهمّةٍ في اعْتباراتِ «التّنْمية» وتَأْصيلِ شُرُوطِهَا؛ فمن الوَاضِحِ أنّه إذا فَقَدَتْ «الثّقافة» قُدْرَتَهَا على التّفاعُلِ مع عَصْرِها، وتَلْبيةِ احْتياجاتِ بيئتها، وصَوْغِ الرُّؤى لمُسْتَقْبَلٍ أفْضل لأجْيالِها، فإنّها تكون قد سَقَطَتْ في قَبْضَةِ التَّخَلُّف، وخَذَلَتْ مُجْتمعَها.

وهكـذا تُصْبِحُ قضيّةُ «الثّقافة» قضيّةً «جماهيريّةً»، وتَتَخَلَّصُ من قَدْرٍ كبيرٍ من تلك «الرُّؤيـة النُّخْبويّة» التـي اهْتَمَّتْ بحَصْرِ «الثّقافة» فـي ما أَسْمَتْهُ «الثّقافـة الرّفيعة» التي تُمارِسُهَا الأقليّةُ في فُنُونٍ جميلةٍ، وآدابٍ إنْسانيّةٍ، وأنْشطةٍ فِكْريّة تأمُّليّةٍ، وهنا تُصْبِحُ رُؤيةُ توماس إليوت مُهِمّةً عندما يقول: (بحسـب نَظْرتي لـ«الثّقافة» فإنّ على جميع السُّكان أنْ يَلْعَبُـوا دَوْراً فَاعِلاً في النّشاطات الثّقافيّـة، دون أنْ تَتَرَكَّزَ أدْوارُهم جميعاً في النّشاطات ذاتها أو على المُسْتوى ذاته)[٢٧].

إنّ الأساس الجوهريّ لبِنَاءِ «القُدْرَةِ التّقنيّة»، وتَشْييدِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّة»، يَتَطَلَّبُ - في المقام الأوّل - عناصِر بشريّةً مُتَوائِمَةً مع هذه المُتطلَّبات، ومُتَكَيِّفَةً مع احْتياجاتها بحيث تتوافرُ لديها المهاراتُ والخِبْراتُ والمعارِفُ اللازمة للبَحْثِ والتّطْويرِ والتّصْميم والتّصْنيعِ والإنْتـاج. وهـذه «العناصِرُ البشريّـةُ» هي جُمْلَةُ القُـوى العَامِلَةِ ذات الكفـاءاتِ والقُدْراتِ الإنْتاجيّة التي تَشْمَلُ الباحِثَ والعامِلَ والمُهندسَ والفنّيّ والعَالِمَ والمُديرَ والمُوظَّف، وهذا يَسْتَدْعِـي بِيئـةً دَاعِمَةً، وتَحْفيـزاً مُسْتمرّاً، ووَسَطاً فَعّـالاً، لتكون «التّنْميـة» مَنْهَجاً يَنْطَلِقُ - دون انْفِصَـام أو عَوائِـق - لتَعْتَنِقَـهُ كُلُّ شرائِح المُجْتمع، وتتفاعلَ معـه بحيويّةٍ، فتَنْتَشِرَ أصْـداؤه ومُعْطياتـه لتَشْمَلَ كُلَّ المَنْظُومَـاتِ الاجْتماعيّة والثقافيّـة والإعْلاميّة والتّنْفيذيّة والتّخْطيطيّـة والتّشْريعيّة والتّعْليميّة وغيرها؛ وهذا يَتَطَلَّبُ توفير «الثّقافة المُلائِمَة» لتكون «الوَسَطَ» الـلازِمَ لتَحْريكِ «التّقْنية»، ونَقْلِ «المَعْرِفَةِ العِلْميّـة»، وتَمْكينِ الآليّاتِ المطْلُوبة، وتَعْميقِ فِعْلِهَا، وتَطْويرِ عطائِها في مُجابَهَةِ عمليّةٍ لـ«إشْكَاليّة التّنْمية».

٣-٣-١) قانون «التَّحَدِّي والاسْتِجَابَة»:

لقد قام أرنولد توينبي[٢٩] (Arnold Toynbee) بدراسة إحدى وعشرين حضارةً دِراسَـةً شَامِلَـةً ليَخْلُصَ إلى أنّ حركـة التّاريخ لا تَعْتَمِـدُ على البيئـةِ الجُغْرافيّةِ ولا على الأعْـرَاق، وإنّمـا هـي نتيجةٌ لمَوْقِـفِ المُجْتمع إزاء مـا يُقابِلُهُ من تحدّيـاتٍ، وبذلك صاغ أرنولـد توينبي قانـون « التَّحَـدِّي والاسْتِجَابَة» ليُقَـرِّرَ أنّ: (الاسْتِجَابَـة للتّحَدِّي هي التي تَصْنَعُ الحضارة)، وذلك على أساس أنّ نُموّ أيِّ حضارةٍ هو نتيجةٌ لاقْتِدَارِهَا على مُواجَهةِ «التَّحَـدِّي» الذي يَعْتَرِضُهَـا مُوَاجَهَةً إيجابيّةً فَاصِلَةً؛ وبالتّالي فـإنّ «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» للتَّحَدِّيَـاتِ التّنْمَويّـةِ القَائِمَةِ فـي العَالَمِ العربـيّ تُصْبِحُ ضرورةً لا مناص عنها لتَحْقيقِ الإنْجازاتِ التّنْمويّةِ والحضاريّة.

لقد ضَاعَتْ مثل تلك «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» في العَالَمِ العربيّ وسط الجَلَبَةِ الفِكْريّة، والاضْطِـرَابِ السّياسيّ، والبَذَخِ الكلامـيّ، والانْبِهَارِ المُتخاذِل، والاجْتِـرَارِ المُمِلّ، ولعلّ هـذا ما يَعْرِضُ إليـه بوضوحٍ محمد عابد الجابـريّ[١] حين يقول: (إذا كُنّـا نُعانِي اليوم مـن كثيرٍ من مظاهِرِ الاسْتِلابِ إزاء الغَرْبِ فلأنّنـا نَأْخُذُ منه النّتائج والثّمرات، ونُعْرِضُ عـن المبادئ والأُسُـس: نَسْتَوْرِدُ منه لنَسْتَهْلِـك، وليس لنَغْرِسَ ونَسْتَنْبِـت. ومن دون شَكٍّ فـإنّ النَّجَاحَ في عمليّةِ الغَرْسِ والاسْتِنْبَاتِ يَتَوَقَّفُ على إعْدَادِ التُّرْبَـةِ الصّالِحَة، والتُّرْبَةُ الصّالِحَـةُ لا تُسْتَوْرَد. ولذلك قُلْنَـا، ونُكَرِّرُ القول، بإعادة كِتابةِ تاريخنـا الثّقافيّ بصُورةٍ عَقْلانيّـةٍ وبـرُوحٍ نَقْديّةٍ، لأنّـه من خلال مُمَارَسَـةِ العَقْلانيّـة النقْديّة في تُراثِنَـا نَكْتَسِبُ عَقْلانيّـةً أصيلةً وجديدةً، عَقْلانيّةً ستكـون هي التُّرْبَة الصّالِحَة الغنيّـة والخِصْبَة، التي تَسْتطيعُ حَمْلَ مبادئ وأُسُسِ «العِلْم المُعَاصِر». وبطبيعة الحال فالتّعامُلُ النّقديّ العَقْلانيّ مع تُراثِنَا يَتَوَقَّفُ على مدى ما نُوَظِّفُهُ بنجاحٍ من المفاهيم والمناهِجِ العِلْميّةِ المُعَاصِرَة). وفي وَقْفَةٍ حَازِمَةٍ يَصِفُ محمد عابد الجابريّ طبيعة تلك «الاسْتِجَابَة الإيجابيّة» المَطْلُوبة للتَّصَدِّي للتّحَدِّي القائِم فيقول: (ولذلك كان من الضّروري لنا، سَواءً من أجل حَلِّ مشاكِل ماضينـا في وَعْينا أو من أجل بِنَـاءِ مُسْتقبلنا الثّقافيّ، العملُ على نَشْـرِ «الثّقافة العِلْميّة

والفَلْسفيّـة» وتَكْريسِ أساليبِ «البَحْـث العِلْميّ» ومناهِجه، نظريّـاً ومُمَارَسَةً، في ساحتِنا الثقافيّـة الرّاهِنة. إنّـه الشَّرْطُ الضّروريّ لتَدْشينِ عَصْر تَدْوينٍ جديـدٍ يُؤسِّسُ المُسْتَقْبَل بما يَسْتَجيبُ لمُتطلّباتِه ويَفي بحاجاتِه).

تقودُنا هذه المضامينُ إلى تلك «الثَّوْرَةِ الفِكْريّة» التي أشار إليها زكي نجيب محمود فـي أكْثـر من مقامٍ ومقالٍ، وهي الثّوْرَةُ القَادِرَةُ على تَأْميـنِ «المُنَاخِ الفِكْريّ العامّ»، حيث خَلَصَ - مـن وَاقِعِ قِرَاءَتِـهِ للتّاريخِ والوَاقِع - إلـى القول: (وعقيدتي هي أنّ ثَـوْرَةً فِكْريةً كهـذه لم تَحْدُثْ لنا خلال هذا القَـرْنِ كلّه، برغْم التّغيُّراتِ الكثيـرة والهامّة التي طَرَأَتْ علـى صُورةِ الحياة، وذلك لأنّ النّمَـطَ الفِكْريَّ القديمَ باقٍ كما كان دائماً، والعجيبُ الذي يُلْفِتُ النَّظَرَ هو أنّ الفَجْوَةَ الكَائِنَةَ بين ذلك النّمَطِ الفِكْريّ من جِهَةٍ، وتَفْصيلاتِ الحياةِ الجديدةِ من جِهَةٍ أُخْرى، لا تُحْدِثُ فينا شيئاً من القَلَقِ أو التَّوتُّر، الذي لو حَدَثَ، لحَفَّزَنَا إلـى سَدِّ الفَجْـوَةِ بالمُلاءَمَةِ بين المبـادئ العامّة وتَفْصيلاتِ الحيـاة العمليّة)[٢٠]. ولعلّ الحقيقـة الرّابِضَـة على وَاقِعِ «الثّقافـة العربيّة» فـي «الأَلْفيّة الثّالثة» تَدْعُـو إلى العجب؛ فهـي ذات الحقيقة التي عَبَّرَ عنها زكي نجيب محمود في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الماضي، لنجدَ أنّ «الفَجْـوَةَ المَعْرِفيّـة» المُسْتَفْحِلَةَ و«الهُـوّةَ الحضاريّة» المُتَفاقِمَةَ بيننـا وبين الآخَرين فَشِلَتَـا مَرَّةً أُخْرى في اسْتِفْزَازِ «القَلَـقِ» و«التَّوتُّرِ» اللذين أشار إليهما كمُحَفِّزاتٍ لسَدِّ تلك «الفَجْـوَةِ» وتَقْليصِ تلك «الهُـوّة»؛ وبالتّالي لم تكنْ «الاسْتِجَابَةُ» بحَجْـمِ «التَّحَدِّي»؛ أَيْ أنّ «تَرْكيبة الثّقافة العربيّة» لم تَخْضَعْ لقانون «التَّحَدِّي والاستِجَابَة».

يقودُنـا هذا الأَمْرُ - مَرّةً أُخْـرَى - إلى «مَفْهُوم توجيه الثّقافـة»[٢٨] (انْظر: الفَصْل الثّانـي) الذي يَهْتَمُّ بإعادة تَرْكيبِ «عناصِر الثّقافة»، ومُراجَعَةِ مُقَوِّمَاتِهَا، ووَضْعِ الخُطَطِ المُلائِمَـةِ لتَطْويرِهـا وتَصْحيـحِ مساراتِهـا، لتتحقَّـقَ «الفَاعِليّـةُ الاجْتماعيّـةُ» التي هي الوظيفةُ المَطْلُوبَةُ لـ«الثّقافة» بحيث تَسْتطيعُ أنْ تُواكِبَ المُسْتَجِدَّاتِ والمُتَغيِّرات، وتَلْتَصِقَ باحْتياجـاتِ المُجْتمع، وتُوَجِّهَ الفَرْدَ والجماعة نحو الحُلُولِ الشّافِية. وتَحْتَلُّ قضيّةُ «توجيه الثقافـة» مَوْقِعاً مُهِمّاً في رُؤيةِ محمد عابد الجابريّ لحَـلِّ «إشْكَالِيّة الأَصَالَة والمُعَاصَرَة» حيـث يـرى: (إنّ المَسْأَلَةَ هنـا ليستْ مَسْأَلَةَ إحْـلالِ الماضي محلّ الحاضِـر، أو القديمِ

محـلّ الجديد، بَلْ هي إعادةُ بِنْيَةِ الوَعْي بالماضي والحاضِر والعَلاقَة بينهما، وهي عمليّةٌ تَتَطَلَّـبُ التّخْطيـطَ فـي آنٍ واحِدٍ لثقافـة الماضي وثقافـة المُسْتَقْبَـل: «التّخْطيطُ لثقافةِ الماضـي» مَعْنَاهُ إعادة كِتابـةِ تاريخِها، وبالتّالي إعادة تَأْسيسِها فـي وعينا وإعادة بِنائِها كتُرَاثٍ لنا نَحْتويه بدل أنْ يَحْتوينا. أمّا «التَّخْطيطُ لثقافة المُسْتَقْبَل» فمَعْنَاهُ توفير شُرُوطِ المُواكَبَـةِ والمُشَارَكَة: مُواكَبَةُ الفِكْرِ المُعَاصِـرِ والمُشَارَكَةُ في إغْنائِه وتوجيهِه، وذلك هو مَعْنَى «المُعَاصَرَة»[1].

يقودُنـا هذا التّحْليل الـذي يَسْتَنِدُ إلى خصائِص المَرْحلة ووَاقِـع المُجْتمع، ويَنْطَلِقُ مـن اعْتبـار عُنْصُرَيْن، همـا: «المَنْطِق العملـيّ» و«الصِّناعة»، اللذيـن جعلهما مالك بن نبيّ[28] عُنْصُرَيْن جَوْهَرِيَّيْـن في «التَّرْكيب العَامّ للثّقافة» (انْظر: الفَصْل الثّاني)؛ أقول: يقودُنا هذا التّحْليـلُ - بالضّرورة - إلى مَفْهُوم «الثّقافة التّنْمَويّة» وتَأْصيلِه وتَفْعيلِه. وقبل أنْ نَتَعَـرَّفَ على أهَمِّ سِمَاتِ هذه «الثّقافة التّنْمَويّة»، فإنّه من المُهِمّ أنْ نُحَدِّدَ أبْرز أسْبَابِ قُصُورِ «الثّقافة العربيّة» السّائِدَة، وعَجْزِهَا عن تَحْقيقِ «الفَاعِليّة الاجْتماعيّة» المُعَاصِرَة، وبالتّالـي إخْفَاق «المُثقّف العربيّ» فـي الإسْهَامِ في «عمليّة التّنْمية» بمفاهِيمِها المُعَاصِرَةِ ومَلامِحِهَا المَعْرِفيّة.

٣-٤) «الثّقافة العربيّة»: مَلامِحُ الأَزْمَة:

إنّ أبْـرز سِمَاتِ «الثّقافة العربيّة» أنّها ثقافةٌ أدبيّةٌ ذات نَزْعَةٍ خَطَابيّةٍ تَمْتَدُّ جُذُورها عبْـر قُرُونٍ مـن التَّمَيُّـز البلاغـيّ والتَّفَاخُـر اللّغويّ، حيـث تُهَيْمِـنُ الزّخَـارِفُ اللفْظيّة والطُّرُوحـاتُ الإنْشائيّـة والتَّفاعُـلاتُ الوِجْدانيّـة، وتَتَقَلَّصُ مِساحةُ الفِكْـرِ والتَّمْحيص العَقْلانـيّ، وتَنْحَسِـرُ - أو تَنْعَـدِمُ - آليّـاتُ العملِ والتّدْقيـقِ والتّقْييم والمُتابعـة، لتُصْبِحَ «الـذّاتُ العربيّةُ» كما وَصَفَهَا عبد الله الغذّامي: (كَائِنـاً شِعْرِيّاً تَسْكُنُ الشِّعْر، ولا تَتَحَرَّكُ إلاّ حسب المَعْنَى الشِّعْرِيّ الذي تَطْرَبُ له غير عَابِئَةٍ بالحقيقة)[49].

وهكذا يَنْشَأُ الصّبيّ فينا مُسْتَسْلِماً لأُسْلُوبِ الحِفْظِ والرّواية، ويَتَغَذَّى خيالُه على صُوَرٍ عَاطِفيّةٍ وحماسيّةٍ وجماليّةٍ سِلاحُها الكلمـاتُ الرّنّانة، والإنْشائيّاتُ البليغة، والطُّرُوحاتُ الفَضْفَاضَـة، والمُحَسِّنَاتُ اللفْظيّة من طِبَاقٍ واسْتِعَارَةٍ وجِنَاسٍ وتَوْرِيَةٍ؛ فيَنْمُو على سَجيّةٍ أدبيّةٍ خَالِصَةٍ، فإذا اصْطَدَمَ بضروراتِ «الفِكْر العِلْميّ» من مُعْطياتٍ عِلْميّةٍ مُنْضَبِطَةٍ ودِقَّةٍ تَجْريبيّـةٍ صَارِمَةٍ، كان الحماسُ ضعيفاً، والتَّحَدِّي صَعْباً، والاسْتِمْـرَارُ مُعْضِلَةً. ولا نُبَالِغُ إذا قُلْنَـا إنّ في دَاخِلِ كُلِّ عربـيٍّ طِفْلاً أديباً يَتُوقُ إلى النُّموّ والبُـرُوز، ويَطْمَحُ إلى التّعْبير عـن ذاته؛ ولذا كان بيننا المُهندسُ الصّحفيّ، والطّبيـبُ الشّاعِر، والجيولوجيُّ الرّوائي، والكيميائـيُّ الأديب، ممّا يُوَضِّحُ أنّ نسيج «الفِكْر الأدبيّ» يُغَلِّفُ حياة كُلٍّ منّا من قِمّةِ رَأْسِهِ إلـى أَخْمَصِ قَدَمَيْـه. وإذا كان «الأدبُ» هو القِوام الذي تَمَثَّلَتْ فيه «الثّقافة العربيّة»، فإنّ السّياسـة وصِراعـات السُّلْطَةِ كانتْ وراء توظيف ذلك القِـوام، وتَكْثيف نسيجه الدّاخِليّ؛ وبالتّالي وَقَعَتْ «الثّقافةُ العربيّةُ» في أَزْمَةٍ مُسْتديمةٍ يرى فيها محمد عابد الجابريّ «أَزْمَةَ الفِكْـرِ العربيّ المُعَاصِـر» ويَصِفُهَا بقوله: (إنّهـا أَزْمَةُ ثقافةٍ ارْتَبَطَتْ منـذ بداية تَشَكُّلِهَا بالسِّياسـة، فكانـتْ السِّياسةُ فيهـا، لا العِلْم، هي العُنْصُـر المُحَرِّك ممّا جعلهـا تَخْضَعُ باسْتمرارٍ لتقلُّباتِ السِّياسة، وتتأثَّرُ بنجاحِها وإخْفاقِها، وتَنْحَطُّ بانْحِطَاطِهَا) [1].

وأمّـا في العُقُـود الأخيرة من القَرْنِ الماضي، فقد بَـرَزَتْ أُطْروحاتٌ نَقْديّةٌ تَفْحَصُ مُنْطلقاتِ «الثّقافة العربيّة»، وتُمَحِّصُ مَرْجِعيّاتِهَا، وتَتَلَمَّسُ آثارَها، ولنتوقَّفْ - على سبيل المِثـال - أمام وَقْفَةِ حسن صعب حيـن يقول: (نَدْعُو العَقْلَ العربـيّ للتَّحَوُّلِ من «صِنَاعَةِ الكلمـات» إلى «صِنَاعَـةِ الأشْياء»، ومـن اجْتِرَارِ المَنْظُومَـاتِ والأراجيزِ إلـى نَظْمِ الفِكْرِ والحياة، بَلْ نَظْم الكَوْنِ نَظْماً إبْداعيّاً جديداً) [53]. ويُكَرِّسُ عبد الله الغذّامي هذه الحقيقة فيقول: (الشَّخْصيّةُ الشِّعْريّةُ نَسَقٌ ثقافيٌّ مُتَرَسِّخٌ ومُتَعَزِّزٌ فينا، ونحن نُعِيدُ تَرْسيخَه وتَعْزيزَه عبْر تَمَثُّلِهِ في الخِطَابِ وفي السُّلُوك، وهو ما يَصْبِغُ ويُمَيِّزُ نَسَقَنَا المُهَيْمِن، ويُؤثِّرُ على كُلِّ مجالاتِنـا العَاطِفيّة أوّلاً ثـم العَقْليّة خُضُوعاً لذلك واسْتِسْلاماً لـه) [49]. أمّا عبد الحميد أبـو سليمان [26] فيقول: (لقد ضَيَّعَ المُسْلِمون وضَيَّعَ العَقْلُ المُسْلِمُ الكثير من طاقاته عبْر التّاريخ، حين سُمِحَ لهذا العَقْل بأنْ يخوض في الغيبيّات والإلهيّات والسّفسطات الفلْسفيّة

التـي تَتَعَلَّقُ بالكُلِّيّـاتِ الرَّبّانِيّة على غير ما تَقْضِي به الرُّؤيـةُ الإسْلاميّةُ وإطارُها الفِكْريّ والمَنْهَجـيّ). أمّا تلك «الرُّؤية الإسْلاميّة» التي فَقَدَهَـا المُسْلِمون منذ زمنٍ بعيدٍ، وتَرَتَّبَ عليهـا هذا الوَاقِعُ المُزْري، فإنّ أبا سليمان يُبَيِّنُهَا بقَوله: (الرُّؤية الإسْلاميّة القويمة التي يتكاملُ فيها الوحي والعَقْل والكَوْن، ويُصْرَفُ فيها العَقْلُ المُسْلِمُ إلى النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ والعملِ في عَالَـمِ الشّهادة وشُؤونه كما يُوَجِّهُهُ الوحي، هي الرُّؤيةُ التي مَكَّنَتْ للسَّلَفِ الأوّل ناصية الإبْـداع، وفتحتْ أمام العَقْلِ المُسْلِـمِ أبْواب التَّجْريبِ والنَّظَـرِ والتّنْقيبِ في سُنَنِ الحياةِ والكائِنـات، وفتحتْ للإنْسانيّة آفاقاً جديدة في مجال الحضارة، كانتْ هي الأساس الذي أقامتْ الحضـارة الحديثة عليه مَنْهَجَهَا العِلْميّ التّجْريبيّ، وإنْجازاتها المادِّيّة التّجْريبيّة التي لم تَعْرِفْ لها الإنْسانيّة من قبل سبيلاً ولا مثيلاً). وتَتَأَكَّدُ مُقَوِّمَاتُ «الثّقافة العربيّة»، وتَتَوَطَّـدُ عناصِرُهـا الأبْرز، فـي النّصيحة التـي أَسْدَاهَا عبد الحميد الكاتـب في القَرْنِ الثّانـي الهجْريّ إلـى جَمْهَرَةِ الكُتّاب حيث قـال: (فتنافَسُوا يا مَعْشَـرَ الكُتّابِ في صُنُوفِ الآداب، وتَفَقَّهُـوا فـي الدِّين، وابْدؤوا بعِلْم كِتاب اللّه والفرائِض، ثـمّ العربيّة فإنّها ثِقَافُ ألْسنتكـم، ثمّ أجيدُوا الخَطّ فإنّه جَلِيّةُ كُتُبِكُـم، واروُوا الأشْعَارَ واعْرِفُوا غريبَها ومعانيها، وأيامَ العربِ وأحاديثَها وسِيَرَهَا، فإنّ ذلك مُعِينٌ لكم على ما تَسْمُو إليه هِمَمُكُم)[١٨]؛ وأمّا الاهْتِمَامُ بـ«العِلْمِ الطَّبيعيّ» و«التَّفَكُّرُ في سُنَنِ الكَوْن» فلم يَحْظيا في تلك «الرُّؤية الثّقافيّة» بمكانٍ مهما صَغُرَ شَأْنُه!.

٣-٤-١) «الثّقافة العَوْرَاء» تحت الحِصَار:

أمـام انْدِفَاعِ «الكلمة العربيّة»، وهي تتهـادى ببلاغتِها وفصاحتِها، وتَحْمِلُ مجازَها وبديعَهـا، وتَتَأَلَّـقُ بمُحَسِّنَاتِهَا اللّفْظيّـة وجزالتِها النّثْريّة، وتُحَلِّقُ مـع موسيقاها الشِّعْريّة وخيالِهـا الخِصْب؛ أقول: أمام ذلك الانْدِفَاعِ الجَامِـحِ فَقَدَتْ «الكلمةُ» معانيها، وأَصْبَحَتْ تَعْنِـي أيَّ شـيءٍ وكُلَّ شيءٍ، وخَضَعَتْ لأغْراضِ أصْحابِها الضّيّقـة وحِساباتِهم المَحْدُودة، وراحَـتْ تَرْتَـعُ في رِحَابِ الفَخْـرِ والنَّرْجسيّةِ دون ضَابِطٍ، وتَنْتَقِلُ بيـن المديح الذي يُكالُ كَيـلاً دون حِسَابٍ، وبيـن الهِجَاءِ الذي تَعَـدَّدَتْ فُنُونُهُ وصُنُوفُه، وفـي أغْلب الحالات كان

أصحابُها يَنْأون عن النّقْد الموضوعيّ، والاعْتدال العَقْلانيّ، والتّحْليل النّزيه. وهكذا نَجِدُ أنّنا نتصدّى لخَلَلٍ ثقافيٍّ بُنْيويٍّ، ولقد سَبَقَ أنْ عَبَّرْتُ[٥٤] عن هذا الخَلَلِ البَيِّنِ بوَصْفِ «الثّقافة العربيّة» الرّاهِنَةِ بأنّها «ثقافةٌ عَوْرَاءُ» تُبْصِرُ بعَيْنٍ وَاحِدَةٍ فقط، هي «عَيْنُ الأدب والإنْشائيّات والخَطَابَة»، وأمّا ذلك الشّيء الذي مَلأ الدُّنيا، وشَغَلَ النّاس، وأَحْدَثَ الانْقلاباتِ الكُبْرى في حياةِ البشر وتطوُّرِها وفِكْرِها، وهو «العِلْمُ الطَّبيعيُّ»، فإنّه «القضيّةُ الغَائِبَةُ» في اهْتِماماتِ ثقافتنا، ومُدَاوَلاتِ مُفكّرينا، وتفاعُلاتِ مُجْتمعنا.

وقبل أنْ نَدْلِفَ إلى التّفاصيل، فإنّه من المُهِمّ أنْ نَعْتَرِفَ بأنّ الخصائص البليغة في «لُغَةِ القُرْآن» تَحْمِلُ - بالضّرورة - أبْعاداً إيجابيّة يَنْتَشِرُ عَبَقُهَا على مُخْتلف المُسْتويات الفِكْريّة والعِلْميّة والنّفسيّة والوجْدانيّة والإدْراكيّة، فهي تُضْفِي على الفِكْرِ عُمْقاً، وعلى النُّطْقِ بهاءً، وعلى العطاءِ سُمُوّاً، وعلى العِلْمِ رَحَابَةً، أو هكذا كان يَنْبَغِي أنْ يكون الحال!. وأمّا حالُ «الإنْسان العربيّ» إزاء لُغَتِهِ الفريدة، فهو كحاله إزاء كُلِّ ما أَنْعَمَ اللّه به عليه من مَوارِدِ فِكْريةٍ ومادِّيّةٍ ووِجْدانيّة؛ فقد أَفْلَحَ «الإنْسان العربيّ» - عبْر أزْمنةٍ رديئةٍ مُتواليةٍ - في أنْ يَجْعَلَ من إيجابيّاتِ لُغَتِهِ سَلْبيّاتٍ، ويُشَوِّهَ الأدواتِ لتحيد عن مقاصِدِها، ويُطَوِّعَ المعاني لنظراتٍ أنانيّةٍ قَاصِرَةٍ، ويَطْرَحَ فِكْراً ضَحْلاً في جِلْبَابٍ وَاسِعٍ يَضِجُّ بالكلماتِ الرّنّانة والأساليبِ المُنَمَّقَة، وأَصْبَحَ الحالُ كما يقول عبد اللّه الغذّامي: (جرى فِعْلاً تَجْريد اللغة من دَوْرِهَا في الفِعْلِ والعمل، وكأن قد صارتْ لُغَةً غير فَاعِلَةٍ ولا تَدْفَعُ للعمل، لُغَةً غير وظيفيّةٍ وغير فِعْليّةٍ، بعد أنْ تَشَبَّعَتْ بالشِّعْريّةِ المُفْرِطَةِ والبلاغيّةِ غير العمليّة وغير المُلْتزِمَةِ بشُرُوطِ المَعْقوليّةِ والوَاقِعِ مذْ كان الشِّعْرُ غير مَعْنِيٍّ بهما)[٤٩].

لقد وَقَعَتْ «الكلمة العربيّة» - في رأْيي[٥٥] - تحت حِصَارِ «ثقافَتَيْن»؛ إحْداهما ثقافةُ (أَعْطِهِ ألْف دينارٍ يا غُلام)؛ وهي ثقافةٌ نَمَتْ وتَرَعْرَعَتْ عبْر قُرُونٍ من المُمَارَسَاتِ السُّلْطَوِيّة والاسْتِبْدَادِ، ومَنْهَجِ زَرْعِ الولاء عبْر الأُعْطيات والمِنَح، فتدافع الشُّعَراء والخُطباء والمُفَوَّهون وأصْحاب الحاجات من شَتّى الفِئات والفُنُون أمام أبْواب السُّلْطَة، ولَحِقَ بهم الإعْلاميّون والمُثقّفون - من شَتّى الأطْياف - في عَصْرِ الوسائل الإعْلاميّة الحديثة. وأمّا ثاني «الثّقافَتَيْن» فهي ثقافةُ (أرى رؤوساً قد أَيْنَعَتْ وحان قِطَافُهَا)، وهي ثقافةٌ نَمَتْ

في ظُرُوفِ الاسْتِبْدَادِ ذاتها ومَنْهَجِ الغَلَبَةِ نفسه فأخذتْ - بعد الخِلافَة الرّاشِدَة - تَتَغَلْغَلُ فـي نسيج «المُجْتمعات العربيّة»، وتتداخلُ مع تفاعُلاتهـا، وتَسْتَرْجِعُ «حَمِيَّتَهَا الجَاهِليّة»، وتَقْمَعُ «الكلمة الحُرَّة» و«الإبْداع الأصيل» بحَواجِز الرَّهْبَة والخَوْف.

أمّـا عـن «ثقافة الفَخْـر»، فحَـدِّثْ ولا حَـرَج[٥٦]، وكأنّ «الإنْسان العربـيّ» أَدْرَكَ أنّ طريقتـه الوحيدة لتَعْويض ما لَحِقَ به من «الدَّمَارِ النَّفْسيّ» بسبب «ثقافة الاسْتِجْدَاء» من ناحيـةٍ، و«ثقافـة القَمْع» مـن ناحيةٍ أُخْرى، هـو أنْ يَرْتَمِي في أحْضان تيـاراتٍ عَارِمَةٍ من «النَّرْجسيّـة المُتَوَرِّمَة»؛ فكلماتُه طَغَتْ على أبْـرع أدوات الطِّبّ، فهي التي جعلتْ (الأعْمى يَنْظُـرُ إلى أدبه)، وهي ذاتها التي (أَسْمَعَتْ من به صَمَـمٌ)، ورضيعُه يَتَفَوَّقُ ويُهَيْمِنُ حتّى (تَخِـرُّ له الجَبَابِـرُ سَاجِدِينا)، وهو يَتَنَعَّمُ بـكُلِّ الخيرات وغيره يَشْـرَبُ (كَدَرَاً وطِينا)، وهـو مَرْكَزُ الكَـوْنِ، فإذا مات ظَمْآناً (فلا نَزَلَ القَطْرُ)!. ولعـلّ تلك «النّرْجسيّة» هي التي جَعَلَتْـهُ - عبْـر حِقَبٍ طويلةٍ - يـرى في الاسْتِبْـدَادِ ضرورةً، وفـي غِيَابِ المُسْتَبِـدّ أَزْمَةً، فرسخـتْ على تضاريسـه ازْدواجيّاتٌ بغيضـةٌ[٥٢]؛ منْها أنّـه يَلْعَنُ الظّـلامَ والاسْتِبْدَادَ، بينمـا لا يَتَرَدَّدُ في البُكَاءِ عليهما وتَمْجيدِهما إذا تَمَلَّكَتْهُ العَاطِفَةُ، وكأنّه يرى في المُسْتَبِدّ انْعكاسـاً لذاته وتَكْريساً لوجـوده؛ ومنْها أنّه لم يُفْلِحْ في أنْ يَجْعَـلَ للفَرْد قِيمةً أساساً في «التّرْكيبـة الاجْتماعيّـة» إلاّ أنّه لا يَتَرَدَّدُ في لحْظة انْفعالٍ أنْ يَجْعَـلَ «الفَرْد المُسْتَبِدّ» فوق الوطن ويَصْرُخَ مع الصَّارِخين: (بالرُّوح، بالدَّم، نَفْديك يا زعيم)!. لقد انْصَرَفَ «العَقْلُ العربـيُّ» في «زمن الجاهليّـة الأولى» إلى صِنَاعَـةِ الأصْنام وعبادتِهـا، ومنْها ما كان من التَّمْـرِ فإذا جاعوا أكلوها، ولكنّه في رُمُوزِهِ المُعَاصِـرَةِ لا يرى غَضَاضَةً في أنْ تَلْتَهِمَ تلك الرُّمُوزُ عافيته ومُقَدَّرَاته ومُسْتقبل أجْياله، وهو يَقِفُ مُصَفِّقَاً ومُنْشِدَاً وحَادِياً لحماقاتِها، ومُتَباكِياً عليها عند سُقُوطِهَا.

٣-٤-٢) دِيوان العرب: «حالةُ انْفِعَالِيّة»:

إنّ «الشِّعْـرَ» هو «دِيوانُ العرب»[٤٩]، فوجد الوَاقِـعُ العربيّ في «الكلمة» سِلاحَه، وفي «الخيـال» ساحتَه، ليكون «الوجود الثّقافيّ» المُهَيْمِنُ عِبارَةً عـن «حالةٍ انْفِعَالِيّةٍ» تَسْتَوْعِبُ

كُلَّ المُتناقِضـات، وتُحَقِّقُ كُلَّ المُتطلَّبـات؛ فهَيْمَنَتْ الرّغْبَةُ الجَارِفَـةُ في تَحْقيقِ الأحْلام بمُجَـرَّدِ التّمنّي، وتَشْييدِ صُرُوحِ الإنْجازِ على انْفِعَالات اللّحْظة، والانْطِلاقِ نحو المُسْتَقْبَل بخيـالٍ خِصْبٍ، وجِدالٍ مُحْتَدِمٍ، وأمانيّ عِرَاضٍ، في اعْتِقَادٍ وَاهِمٍ بأنّ ذلك يُغْنِي عن آلامِ التّخْطيـط، ومَخَاضِ التّمْحيص، وضُرُوبِ المُسَاءَلَة، وأَرَقِ المُتَابَعَة. وأمّا الأَسْوأُ من ذلك كُلِّـه فهو أنّ «الفِكْر» ذاته أَصْبَحَ خَالِياً من المعاييـر المُنْضَبِطَة؛ لأنّ «الشِّعْرَ» هو النَّمُوذَجُ الأَسَاسُ الذي تُقَاسُ عليه الأشْياء، وكما يقول عبد الله الغذّامي: (ومن دَاخِلِ هذا الفَرَاغ، الـذي أهمّ سِمَاتِـه اللافَاعِليّة واللاعَقْلانيّـة، يَتَسَلَّلُ للثّقافة سَادَةٌ مـن الأشْبَاحِ الثّقافيّة يَحْتَلّون الفضاء الخياليّ والمجازيّ للأُمّة ويَصْنعون نماذجنا العُلْيا، دون أنْ نُدْرِكَ زيفها واهْتراءهـا)[٤٩]. وهكذا أَصْبَحَتْ «صِنَاعَةُ الكلام» هي المَطْلـب والمُبْتغى، وهي المُنْجِد والمُنْقِـذ، وهـي المَانِحَة للوَجَاهَة والثَّرَاء، وهي الطّريق إلى قُلُـوب أصْحَابِ القرار، وهي المَنْفَذ إلى وِجْدان العامّة، وليأتِ بعد ذلك الطُّوفان!.

ولأنّ «اللّغة» ليستْ فقط وسيلة تَخَاطُبٍ وتَوَاصُلٍ بين النّاس، ولكنّها- أيضاً - «وِعَاءُ الفِكْر»، وهي النّظامُ الأساسُ الذي يَسْتخدمه الإنْسان في التّنْظير والتّحْليل والاسْتنباط، فـإنّ ابْتعاد «المَلَكَة اللّغويّة» عن ضَوابِطِ «المَلَكَـة العَقْليّة»، وتَمَرُّدِ «الكلمة» على الشُّرُوطِ العمليّـة والمُتطلَّبات الوَاقِعيّة، أَدَّيَا - بالضّرورة - إلى سُوء تَقْديرٍ في «المُقَدِّمَات»، وخَلَلٍ فَادِحٍ في «الاسْتِعْدَادَات»، وكَوارِث فـي «النَّتَائِج» على مُخْتلف الأصْعِدَة[٥٦]. كُلُّ طُرُوحَاتِنَا عن «الثّقافة» وهُمُومِهَا وغاياتِها لا تتجاوزُ تلك الاهْتمامات التّقْليديّة في مجالات السِّياسة ومُناوَرَاتهـا، والأدب وصُنُوفه، والفَنّ وتفرُّعاته، وتَنْحَصِرُ فـي إنْشائيّاتٍ ومُدَاوَلاتٍ تَلْتَفُّ حـول ذاتها، وإنْ حـاول بعْضُها أنْ يَتَدَثَّـرَ بمُصْطلحاتٍ حديثةٍ، ولكن شيئاً مـا لم يَتَغَيَّرْ؛ فـ«الثّقافـة العربيّـة» - في مَضْمُونِهَـا العامّ وأُطُرِهَـا السّائِدَة - بَقِيَـتْ مُحَاصَرَةً تُراوحُ مكانهـا بشَكْلِهَا «الاجْتِـراريّ» بمَنْأىً عن مُشْكلاتِ «المُجْتمع الحديـث» وقضاياه التّنْمَويّة وتحدّياتِـه المَعْرفيّـة. وأمّا المتاهات التـي دَلَفَتْ إليهـا «الثّقافة العربيّة» فقـد أَصْبَحَتْ كـ«متاهـة الفئـران» حيث تَلُـفُّ وتَدُورُ حول نفْسهـا لتعود - بعد جُهْدٍ جهيـدٍ - إلى «نُقْطَةِ البِدايـة». تلك الحقيقة الشّاخِصَة للعِيـان يُؤَكِّدُهَا محمد عابد الجابريّ فيقول: (التّاريخ

الثّقافـيّ العربيّ السّائـد الآن هو في مُجْمَلِهِ مُجَـرَّد اجْتِرارٍ وتَكْرارٍ وإعـادة إنْتاج، بشَكْلٍ رديءٍ، للتّاريـخ الثّقافـيّ نفْسه الذي كتبـه أجدادنا تحت ضَغْطِ صِراعـات العُصُور التي عاشوا فيها وفي حُدُودِ الإمْكانات العِلْميّة والمَنْهَجيّة التي كانتْ مُتَوافِرَةً عندهم)[1].

وهكـذا بوَقْفَـةٍ صريحةٍ مـع الذّات، ونحـن نُحَلِّلُ أوضـاعَ تَعْليمنا وإعْلامنـا وفِكْرنا وثقافتنـا، نَجِـدُ أنّنا في حَاجَـةٍ إلى جُهُودٍ جبّارةٍ تَتَـوَاءَمُ مع زمنِهـا، وتَسْتَوْعِبُ تحدّياته، لتَصْبِـغَ «الكلمة العربيّة» بلَونٍ حيويٍّ مُؤثِّرٍ يَحْمِلُ نَبْضَ عَصْـرِه، ويُواجِهُ إشْكالاته، ويَتَعَلَّمُ مُفْرَدَاتـه، ويتفاعَـلُ مـع مُصْطلحاته. ومن الوَاضِـحِ أنّنا لم نَصِلْ بعْد إلـى تلك «النُّقْطَة الحَرِجَـة» التـي تُؤهِّلُنَـا لاسْتِيعـابِ حقيقة «الأَلْفيّـة الثّالثـة» وتحدّياتها، ولـم نَقْتَنِعْ بعْد بـأنّ الاحْتِفَـاءَ بـ«الأدب» ليس هو الاحْتِفَـاء بـ«الثّقافة»، ولكنّه احْتِفَاءٌ بجُـزْءٍ من «الثّقافة المُعَاصِرَة»، وهو - دون شَكٍّ - ليس الجُزْءَ الأهَمَّ في عَصْرِ «انْفِجَار المَعْلُومَات».

٣-٤-٣) طبيعة «الأَزْمَةِ الثّقافيّة»:

تَتَجَلَّـى طبيعةُ «الأَزْمَةِ الثّقافيّةِ» - في المُجْتمعـات العربيّة - في أنّها لا زالتْ تعيشُ هَاجِسَ الماضي المُهَيْمِـن بشِعْرِهِ ونَثْرِهِ وسَجْعِـهِ ومُسَامَرَاتِه، ولم تُـدْرِكْ بعد أنّه قد آن الأوان لفَهْمِ ما يدورُ حولها من تحوُّلاتٍ كُبْرى، وتَشْخيصِ ما يُؤثِّرُ في مُجْتمعاتها من قُوىً مُعَاصِـرَةٍ، واسْتيعابِ ما يتصدَّى لأجْيالِها من تحدّيـاتٍ مَعْرِفيّةٍ؛ ومن ثمّ يَنْبَغِي عليها أنْ تَسْعَـى - بجِدِّيّـةٍ - إلى إعادةِ صِياغَةِ الأولويّات، ومُرَاجَعَـةِ الطُّرُوحات، وتَحْليلِ الأنْساق؛ لتتمكَّـنَ من بَلْوَرَةِ «الآليّات» القـادِرَةِ على «تَغْيير الثّقافة»، والدَّفْعِ بها إلى فضاءاتٍ حيويّةٍ تَتَكَيَّـفُ مع «مُقْتضيات العَصْر»، وتَتَوَاءَمُ مع «شُـرُوطِ مُجْتمع المَعْرِفَة»، وتَسْتَوعِبُ «هُمُومَ التّنْمية». وأمّا زكي نجيب محمود[2]، فإنّه يَذْهَبُ إلى أبْعد من ذلك حيث يَصِفُ «الحياة الثّقافيّـة العربيّـة» بأنّ: (لهـا ظَاهِرٌ يُخْفِـي وراءه ضَحَالَةً فِكْريّةً، وكدْتُ أقـول إنّه يُخْفِي وراءه جَهَالَـةً فَاضِحَـة)، ويُبَلْوِرُ زكي نجيب محمود تلك الرُّؤيـة فيُضيف: (جَهَالَةٌ بماذا؟ قـد تَسْألني، فأُجيبك بأنّها جَهَالَةٌ بمُعْظَمِ مُقَوِّمَاتِ «المُثقَّف الصَّحيح»، فهي حياةٌ تُوشِكُ أنْ تَخْلُـوَ من الإلْمَامِ بأهمّ القضايا الفِكْريّة التي يَطْرَحُهَا عَصْرُنَا على أبنائه، كما تُوشِكُ

أنْ تَخْلُـوَ تمامـاً من مَعْرِفَـةِ الأرْكان الأساسيّة التي يَتَكَـوَّنُ منْها تُراثُنا، ابْتـداءً من اللّغةِ ومُفْرداتِهـا وطرائِـق تَرْكيبِها، وصُعُوداً إلـى الاتّجاهاتِ الفِكْريـة الرّئيسيّة التي شغل بها أسْلافُنـا، فـإذا كان «المُثقَّفُ» اليوم، لا هو يُشَارِكُ عَصْرَه، ولا هـو يُلِمُّ بتاريخِه الفِكْريّ، فماذا يكون عنده بعد ذلك؟).

إنّ مُجَـرَّدَ طَـرْحِ فِكْرة «المُواءَمَة» بين «الثّقافة العربيّة» التـي يُهَيْمِنُ عليها «التَّوجُّهُ الأدبـيّ»، وبين مُتطلَّبات العَصْر وتحدّيات «الأَلْفيّة الثّالثـة»، يَدْفَعُ بنا إلى فضاءاتٍ رَحْبَةٍ ذات امْتداداتٍ شاسِعَةٍ، ويَتَعَدَّى جُزْئيّاتٍ هنا أو هناك، ليتطلَّبَ الغَوْصَ في تفاصيل عديدةٍ تَشْمَـلُ عناصِر اجْتماعيّةً ووِجْدانيّـةً وفِكْريّةً وسُلُوكيّةً وتُراثيّة، ولِيَدْفَـعَ نحو نَظْرَةٍ شَامِلَةٍ تُحَرِّضُ علـى تَأْسيسِ «التّجَانُسِ الثّقافيّ» بين «المُجْتمـع» بمُخْتلف فِئاته، وبين «العَصْرِ» بأنْمَاطِهِ الجديدة وثَوْرَاتِهِ العِلْميّة، ولِيَضَعَ كُلَّ ذلك على مِحَكّ وَاقِعِ الأُمّة في ظِلِّ تحدّياتِ عَصْرِهَـا، ومُوَاصَفَـاتِ زمانِها، وتَـرَدِّي حالِها. ولا يَكْفِي في هذا الإطـار أنْ نَرْضَى فقط بتَحْليـلِ زكي نجيب محمود لوَاقِعِ «الثّقافة العربيّة» الذي يَحْمِلُ الكثير من الحقيقة، حيث يـرى أنّ الفَشَلَ في حَلِّ المُشْكلات يَرْجِـعُ إلى انْعِدَامِ التّجَاوُبِ وغِيَابِ التّكَامُلِ بين جَانِبَيْ الحيـاة الثّقافيّة: (جَانِب الأدب، وجَانِب الفِكْر)، ويُؤَكِّـدُ أنّ التّوازُنَ بين الكفّتَيْن مَعْدُوم: (فبينمـا الأدب عندنـا قد اضْطَلَعَ بكثيـرٍ جِدّاً ممّا يُرادُ لـلأدب أنْ يُؤَدِّيه، نرى الفِكْرَ في حالـةٍ من القُصُـور تُشْبِهُ العَجْزَ لا يُقَدِّمُ لنا إلاّ قليلاً ممّـا يُعِينُنَا على مُواجَهَةِ المُشْكلات التي أثارها الأدب)[٢٠].

لقد تَسَاءَلْتُ[٥٦] – في مُحاولةٍ للإمْسِاكِ بنُقْطَةِ البدْء – عن المَسْؤول عن «مُسَلْسَلِ التَّـردِّي» في تفاعُـلات «الكلمة العربيّـة»، وانْتَصَبَتْ أمامـي عِدّةُ أسْئلـةٍ منْها: (هل هي مُمَارَسَـاتُ السُّلْطَةِ الطّاغية على مدى قُـرُونٍ التي فَرَضَتْ على «العَقْلِ العربيّ» أنْ يَحْتَمِيَ وراء كلماتٍ فَضْفَاضَةٍ لا تَحْمِلُ عُمْقاً فِكْريّاً أو دَلالَةً عِلْميّة؟). ومنْها: (تُرى هل كان فُقْدَانُ «الإنْسـان العربيّ» لحُقُوقِهِ في ظِلِّ أشْكالِ الاسْتِبْدَادِ وعُصُورِ التَّخَلُّفِ سبباً طبيعيّاً لضياعِ «حُقُـوقِ الكلمة» ففَقَدَتْ معناها عندما تَبَعْثَرَتْ «حُقُـوقُ الإنْسان العربيّ» لأنّ «الكلمة» هي «فِكْـرُ الإنْسـان»؛ ولذا فإنّ فُقْـدان احْترامه لنفْسه جعلـه يَفْقِدُ بالتّالـي احْترامه لفِكْره،

وكانـتْ الضَّحيّةُ هي «الكلمة» التي نَضَعُ عليهـا اليوم كُلّ الأوزار؟). ومنْها: (هل المَسْؤولُ هـو الخيالُ الجَامِحُ الذي تَتَمَيَّزُ به «العَاطِفَةُ العربيّةُ» الجَيّاشَةُ وهي تَنْطلقُ برُعُونَةِ الرّياحِ وهَوجَائيّةِ الرِّمالِ في آفاقٍ وَاسِعَةٍ كاتِّسَاعِ الصَّحْرَاءِ وصَفَاءِ السَّمَاء؟، أمْ هل هو الانْغِمَاسُ فـي «ثقافة اللفْظ»، التي أَصْبَحَتْ مُمَيِّزَةً لـكُلِّ شيءٍ، وأثيرةً في كُلِّ مقامٍ، ليَنْتُجَ عن ذلك ابْتعـادٌ عن «ثقافة الفِعْل» التي تَحْتَاجُ إلى جُهْدٍ وصَبْـرٍ ومُثابَرة؟). ومنْها: (هل المَسْؤولُ هـو «الثّقافـةُ العربيّةُ» نفْسها التـي أَلِفَتْ «الانْفِصَـامَ»، وتناغمتْ مع «التَّنَاقُضِ»، وقَبِلَتْ «الازْدواجِيّة»، فأَصْبَحَـتْ قِيَمُهَا ومفاهيمُها ومعاييرُها على نقيضٍ وَاضِحٍ مع مُمَارَسَاتِهَا وسُلُوكيّاتِهَـا وتَأْويلاتِهَـا وأنْمَـاطِ حياتِها؟). ومنْها: (هـل تداعياتُ «الغُرْبَـةِ الزَّمنيّة» – التـي تعيشُهـا المُجْتمعات العربيّة – هي التي طَوَّرَتْ لديها المهـارة الفريدة في أنْ تعيش دَاخِـلَ الزَّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ؛ فهي تعيشُ دَاخِلَهُ اسْتِهْلاكاً وقُشُوراً، وتعيشُ خَارِجَهُ قِيَمـاً وإنْتاجاً ومَعْرفةً؟). كُلُّ تلك أسْئلةٌ جديـرةٌ بالتّمْحيص عندما نتحدَّثُ عن «الكلمة» وآثارِها على «فِكْرِ العرب» وحياتِهم، وهذا يقودُنا بالتّالي إلى التّمَعُّنِ في أوضاع أصْحابِها والمُتعامِلين معها – في «الأَلْفيّة الثّالثة» – من بني يَعْرُب.

أمّا الجَانِبُ الآخَرُ من مَأْزِقِ «الثّقافة العربيّة» فيتمثَّلُ في أَزْمَةٍ مع الوَاقِع الذي هَيْمَنَتْ عليـه «العلـوم الحديثة»، وتَوَلَّتْ الزِّمَامَ فـي تَشْكيلِ حياة النّاس والتّأْثيرِ في تفاعُلاتِهم؛ فـ«ثقافـة البـدويّ البسيط» الذي انْطَلَقَ، بنَثْـرِهِ وشِعْرِهِ وسَجْعِه، يُعالِـجُ هُمُوماً بدائيّة في صَحْراء شَاسِعَةٍ، ضئيلة المَوارِد وشحيحة العطاء، لا يجوزُ أنْ تكون مُتَطابِقَةً ومُتَماثِلَةً مع «ثقافة العربيّ المُعَاصِر» الـذي تتجاذبه حياةٌ مُعَقّدَة التّرْكيب، وهُمُومٌ مُتَعَدِّدَة الجَوانِب، وطُوفَانٌ غَامِرٌ من هُجُومِ «العَوْلَمَة» و«ثَوْرَةِ المَعْلومات» وتسارُعِ مُتَغَيِّراتِ «مُجْتمع المَعْرِفَة».

المُشْكلـةُ هـي أنّ قِوام «الثّقافـة العربيّـة» كان عَصِيَّاً – وما زال – علـى «التَّغْيير»؛ فحتّـى عندما تَطَوّرَتْ الحضـارة العربيّة الإسلاميّة، وتفاعلتْ مـع غيرها من حضاراتٍ، فـإنّ «الثّقافة العربيّة» حَرَصَتْ على الحِفَاظِ علـى أشْكالِها الخَطَابيّة ومُنْطلقاتِها الأدبيّة وأُطُرِهَـا اللّفْظيّة، ووجدتْ فـي بعض الثّقافات السّابقة لها ما يَدْعُمُ تلك النّزْعَةَ النّظريّةَ

والمَيْـلَ التِّلْقائيّ نحو التَّرَفُّعِ عـن «التِّجْريب» والاحْتِكَامِ إليه، ويُؤَكِّدُ عبد الإله بلقزيز هذه الرُّؤيـة فيقـول: (لم يَفْعَـلْ الوَعْي العربـيّ - الإسلاميّ الوسيـط أكْثر من تَـرْدَادِ الفِكْرَةِ الإغريقيّة القديمة عن المَعْرفة، والتي قامتْ على تَبْجيلِ النّظَر التّجْريديّ والتّأمُّل، وعَدِّهِ الشّـكْل الوحيد لتَحْصيلِ الحقيقة وإدْرَاكِ الجوهر، في مُقابِل الحَطِّ من الحِسّ والتّجْربة وما يَحْصُلُ عنهما من «معارِف»)[١٨]. ولعلّه من المُناسِب ونحن نَقِفُ أمام طبيعة «الثّقافة العربيّة»، ونَرْصُدُ إدْمَانَهَا الكلاميّ، أنْ نتأمَّلَ ما قاله زكي نجيب محمود منْذ عُقُودٍ: (إذا كان لا بُـدَّ من كلامٍ، فليكنْ كلاماً من الضَّـرْبِ الذي يُضِيء طريق العمل، فكُلُّ كلامٍ يَبْدَأُ باللّفْـظِ ويَنْتَهِـي باللّفْـظِ ثم لا شـيء بعْد ذلك، هو هُرَاءٌ، بَـلْ شَرٌّ من الهُـرَاء لأنّ الهُرَاءَ الصّريـحَ يَصُمُّ النّاس دونـه آذانهم فلا يَضُرّ، أمّا هذا الهُرَاءُ المُتَسَتِّرُ وراء طِلاءٍ خَادِعٍ، فهو الذي قد نَفْتَحُ له آذاننا في غير جَدْوى)[٢٠].

يَنْبَغِـي - إذاً - لـ «أَهْل الثّقافة» أنْ يُواجِهُوا هذه الحقيقة المُرَّة فقد يَرْصُدُ بعضهم في دِراساتٍ تَنْمَويّةٍ - هنا وهناك - تغيُّراتٍ ثقافيّةً واجْتماعيّةً، ولكن التّأمُّل الأعْمق سيجدُ أنّ «الثّقافـة العربيّة» لـم تتغيَّرْ في جوهرها؛ فهي في إطارِها العـامّ «ثقافةٌ اسْتِهْلاكِيّةٌ»، وفـي الماضي القريـب والبعيد كانتْ المُتطلَّبـات مَحْدُودَةً والاحْتياجـات قليلة، فاقْتَصَرَ الاسْتِهْـلاكُ من مُنْتَجَاتِ الآخَرين على الجَانِبِ المـادّي في حُدُودِ ما تَسْمَحُ به الإمْكاناتُ مـن اسْتيـرادٍ، وتَمَحْوَرَ الاسْتِهْلاكُ الفِكْـريُّ على اجْتِرَارِ عطاءاتِ الأسْـلاف. وأمّا اليوم في ظِـلِّ «الانْفِجَارِ المَعْلُوماتيّ» و«ثَـوْرَةِ الاتّصَال» فقد تَنَوَّعَ الاسْتِهْـلاكُ وتَشَعَّبَ ليُلامِسَ مُخْتلف الجَوانِب علـى امْتِدادِ الكُرَةِ الأرْضيّة، فأَصْبَحَـتْ «المُجْتمعات العربيّة» لا تَكْتَفِي فقـط باسْتيرادِ «المُنْتَجَـاتِ المادِّيّة» بأنْواعِها من علومٍ وتقْنيـةٍ وصِناعةٍ وأدواتٍ، ولكنّها راحـتْ أيضاً تَسْتَوْرِدُ «المُنْتَجَاتِ الفِكْريّة» بأشْكالِهـا من مُصْطلحاتٍ ومفاهيم وفلْسفات حيـاةٍ، وهي في المُقابِل لا تُنْتِجُ شيئـاً يُذْكَرُ في كُلِّ تلك الأصْعِدَة الحيويّة؛ وهكذا خَضَعَتْ هذه المُجْتمعاتُ لقانون «الفيزياء» الذي يُحَتِّمُ هُبُوبَ الرَّوابِع والرِّياح من مناطِق «الضَّغْطِ العَالِي» إلى مناطِق «الضَّغْطِ المُنْخَفِض».

٣-٥) مَدْخَلٌ إلى «البُعْد الزَّمْكانيّ»:

لا غرابة - في ضوء ما سَبَقَ - أنْ تَعْتَوِرَ «الثّقافة العربيّة» - في رأْيي[٥٧] - حالاتٌ من التَّوتُّرِ والتَّناقُضَاتِ في الحيـاة المُعاصِرَة تحْت وَطْأَةِ «البُعْدِ الزَّمْكانيّ» المُرْتَبِطِ بتداخُلِ «الزّمان» و«المكان» وتَأْثيراتِهما المُتبادَلة؛ فتَهْتَزُّ المعاييرُ بفِعْلِ المُتَغَيِّرَاتِ المُتسارِعة في فتراتٍ من «الزَّمان» مُتلاحِقَة، وتَضْطَرِبُ السُّلُوكيّاتُ تحْت تَأْثير عَامِل «المكان» واخْتِزَالِ المسافات بين مُخْتلف المُجْتمعات الإنْسانيّة، فإذا العَالَمُ قريَةٌ صغيرةٌ تَمُوجُ بالتّفاعُلاتِ والتّدافُعات.

أقـول: حَدِّثوني عن «الثّقافة» التي تُريدون، وعن أنْمَاطِهَا التي عليها تَشْتَغِلُون، وعن رُؤاها التـي إليها تَطْمَحُون، أُحَدِّثُكُم عن «المُسْتقبَلِ» الذي إليـه ستؤولون؛ فإذا اسْتَقَرّتْ الأعْيُـنُ على نُقْطَةٍ فـي «الزّمان» ثَابِتَةٍ، وتَعَلَّقَـتْ مُعْطياتُ الحياة بحـالات التّمنّي وتِبْيان إنْجازات الأجْداد، وأَصْبَحَ «المكانُ» أسير زمانٍ مضى وانْقضى، فإنّه - بالضّرورة - سيكون مَـلاذاً للأوهام، ومَرْتَعاً للإحْباطات، ومُنْطَلَقاً لتَكْـرَارِ الفشل. وأمّا إذا أَهْمَلَتْ «الثّقافةُ» شُجُـونَ «المكان» وأبْعَادَ ساحاتِه وثَوابِتَ تضاريسه، وهُرِعَتْ تَسْتَجْدِي من كُلِّ مكانٍ قِيَماً، وتَسْتَعِيـرُ من كُلّ رُكْـنٍ مُصْطلحاتٍ، وتَتْكَبُّ على كُلِّ جُغْرافيّـةٍ بعيدةٍ عنها لتتسوَّلَ عنْدها مُقَوِّمَاتِ الفِكْرِ وضَوابِط الحياة، فإنّها تكون بذلك قد أضاعتْ دَلالَةَ «المكان»، ودخلتْ في متاهـة «الزَّمان». وذلك هو حال بعض المَحْسُوبين علـى الثّقافة والفِكْر في «المُجْتمعات العربيّـة»؛ فهُمْ لم يُدْرِكُوا أهَميّـة تفاعُلِ «الزَّمان» و«المكان»، ولكنّهم انْطلقوا في متاهات «الزَّمـان» في عَالَم «العَوْلَمَة»، يَسْتَعِيرُون من الآخَرين تجاربَهم، ويُكَرِّسُون مُصْطلحاتِهم التـي تَكَثَّفَتْ عند أَهْلِهَا على مدى حِقَبٍ طويلةٍ من المُعَانَاةِ والمُكابَدَةِ والخطأ والصَّواب؛ وهُـمْ - أيضـاً - نسـوا أنّ لـ«الجُغْرافيا» ضَوابِطَهَا، وهـي بدَوْرِهَا تَحْكُـمُ طبيعة ما يُمْكِنُ غَرْسُهُ في البِيئة، وتُحَدِّدُ ما يكون ضَارّاً وسَامّاً ومُهْلِكاً لأسْباب الحياة في تُرْبَتِهَا[٥٨].

ولا بُـدّ أنْ نَتَوَقَّفَ هنا لنَسْأَلَ بـكُلِّ تجرُّدٍ وموضوعيّة: (ما «رَدُّ الفِعْلِ الموضوعيّ» إذا تَعَرَّضَ الإنْسانُ لهَزّاتٍ مُتتاليةٍ من «نَقْلاتٍ نَوْعيّةٍ» كُبْرى في حياة البشر على مُسْتوىً غير

مَسْبُـوقٍ من قبْل فـي التّاريخ، وأَصْبَحَ خَاضِعـاً لمُتَغَيِّراتٍ مُتلاحِقةٍ وقفـزاتٍ مُتتاليةٍ على الأصْعِدَةِ الحياتيّة والمعيشيّة والفِكْريّة والاجْتماعيّة؟. ألا يُوجِبُ مثل ذلك التّغيُّر الجِذْريّ وقفـاتٍ جَادّةً ونظراتٍ صَارِمَةً أمام طبيعة «الثّقافة» السّائِدَة، ومدى مُلاءَمَتِهَا للتّغيُّرات، وتجاوبِهـا لمُقْتضياتِ العَصْر، وقُدْرَتِهَا على «الاسْتِجَابَـة» لطبيعة «التَّحَدِّيات» المُتفاقِمَة نَوْعَاً وكَمَّاً؟).

إنّ الهَـمّ الرّئيس لهذا الكِتاب هـو مُحاولةُ سَبْر طبيعة ما يَنْبَغِـي أنْ يكون عليه «رَدّ الفِعْل الموضوعيّ» ومُقَوِّماته اللازمة إزاء التّحوُّلات الكُبْرى التي تَشْهَدُهَا الحياة البشريّة فـي «الأَلْفيّة الثّالثـة»، آخِذاً في الاعْتبار جُمْلَـةً من العناصِر، مِثْل: تجـارِب «المُجْتمعات العربيّة» على مدى قَرْنَيْنِ من مُحاولاتِ تَأْسيس «النّهْضَة»، وطبيعة التّحدّيات المُعاصِرَة، ونَهْـجِ «الأُمم المُتَقَدِّمَة» وتجارِبها، ومُؤشِّرَاتِ «المُسْتقبَل» وضُغُوطه، وضرورةِ السَّعي إلى النَّفَـاذِ من المَـأْزِقِ الذي أَسَرَ «الثّقافـة العربيّة» وحاصرها وكَبَّـلَ حركتها. وعلى الرّغْم مـن كُلِّ المُتَغَيِّـرات والتّحدّيـات، فإنّنا، وفْق وَصْـفِ زكي نجيب محمود،: (مـا نزال إلى يومنـا هذا نَنْسِجُ حياتنا على المِنْوَالِ القديم نفْسه؛ فصُدُورٌ تَضْطَرِمُ بمشَاعِر الغَضَبِ أو الرِّضَـا، وألْسِنَةٌ تَنْطَلِقُ بالتّعْبيرِ عمّا في الصُّدُور، تَعْبيراً بالشِّعْرِ حيناً وبالنَّثْرِ أحْياناً، ثم لا شيء بعد ذلك، فمحطّةُ الوصولِ عنْدنا هي أنْ يكون مَكْنُونُ الفُؤاد قد أُفْرِغَ في عِباراتٍ لُغَويّـةٍ، وذلك لأنّنا نظنّ فيما يَبْدُو - جَرْيـاً مع نموذج الشّاعِرِ القديم - أنّه ما دام القَلْبُ قد انْفَعَلَ واللّسَانُ قد نَطَقَ، فقد أَدَّيْنَا كُلَّ ما يُمْكِنُ أنْ يُؤدَّى)[٢٠].

٣-٥-١) «البُعْدُ الزّمَكَانيّ» و«إشْكَاليّة الثّقافَتَيْن» في الوَاقِع العربيّ:

إنّ تداخُـلاتِ «البُعْـدِ الزّمَكَانـيّ» المُتباينة ومُقَوِّمَاتِـهِ المُتَشَابِكَةِ قـادتْ «التَّكْوين الثّقافـيّ العربيّ» إلـى «أَزْمَةٍ فِكْريّـةٍ» تَنْعَكِسُ على الأدبيّـاتِ السّائِدَةِ فـي «الفِكْرِ العربيّ المُعاصِـر» فـي مُصْطلحاتٍ مُتَنَوِّعَـةٍ مِثْل «الغَزْو الثّقافـيّ»، و«ثُنَائِيّة التُّـرَاث والحَدَاثَة»، و«أَزْمَـة العَقْل العربيّ»، ممّا يَجْعَلُ التّحـدّي القَائِمَ هو تَأْسيسُ «تَكْوينٍ ثقافيٍّ» يُحَدِّدُ مَوْقِعَ «المُجْتمعـات العربيّـة» على خريطة الكَوْنِ فـي «زمانٍ» مُعَيَّنٍ و«مـكانٍ» مُحَدَّد. ولكن لعلّه

مـن المُحَيِّرِ أنْ نجد أنّ «الثّقافة العربيّة» – بعد قَرْنَيْـنِ من الإخْفاقات الفِكْريّة والهزائِم التّنْمَويّـة – تُواصِـلُ انْسياقَهَا في الجَدَليّاتِ المُبْهَمَةِ والعُمُوميّـاتِ الغَائِمَةِ ولا تَشْغَلُهَا تلك القضايـا الكُبْرى مثـل «قضيّة التّنْمية» وشُرُوطهـا، و«العَوْلَمَة» وتحدّياتهـا، و«المُسْتَقْبَل» ومُتطلَّباتـه؛ ولا تُمْعِـنُ النَّظَرَ في وسائِل التّفاعُلِ والتّجَاوُبِ مـع «مَنْظُومَةِ العلوم والتّقْنية» التـي هي مِحْـوَرُ حياة العَصْـرِ وإنْجازاتـه؛ ولا تَفْقَهُ أنّ لتلـك «المَنْظُومَـةِ» أَوْجُهاً أُخْرى عـدا «الوَجْـهِ الاسْتِهْلاكيّ» الذي أبْلَتْ فيه الأُمّة أحْسن البـلاء، وأهْمَلَتْ الأبْعَادَ الإنْتاجيّة والثّقافيّة والتّنْمَوية لهذه «المَنْظُومَةِ الحيويّة».

وهكـذا تُهَيْمِنُ على الوَاقِعِ الثّقافـيّ العربيّ «إشْكَالِيّةُ الثّقافَتَيْـن» بشَكْلٍ حَادٍّ، وليس ذلـك بمُسْتَغْـرَبٍ، فقـد رأينا فـي الفَصْل الثّاني من هـذا الكِتاب كيـف شَخَّصَ تشارلز سنو[٣٢] تلـك «الإشْكَالِيّة» في «المُجْتمعات الغَرْبيّة»؛ وهي مُجْتمعـاتٌ نَبَتَتْ فيها «الحركةُ العِلْميّة» بشَكْلٍ طبيعيٍّ، وانْبَثَقَتْ «الثَّوْرَةُ العِلْميّة» عن عُقُولِ رِجَالِهَا وجُهُودِهِم؛ فهي مُتَّصِلَةٌ بحَاضِرِهـم وماضيهم اتّصالاً وثيقاً وطبيعيّاً. ولكن على الرّغْم من طبيعة النُّموّ المُتَدَرِّج لـ«الحركة العِلْميّة – التّقنيّة» في نسيج «الفِكْر الغَرْبيّ» وأنْمَاطِ حياةِ «المُجْتمعات الغَرْبيّة» إلاّ أنّ تشارلز سنو تَعَرَّفَ على مُشْكِلَةِ «هَيْمَنَةِ الثّقافة التّقْليديّة» التي هي – في الأساس – «ثقافـةٌ أدبيّةٌ»، ووجد أنّ الفَجْوَةَ بين «الثّقافَتَيْن» كانتْ بَارِزَةً، وأنّها تَحْتَاجُ إلى اسْتقصاءٍ فِكْـريٍّ، ومُعالَجَةٍ مَنْهَجيّةٍ، وإجْراءاتٍ عمليّة. لقد وَصَفَ تشارلز سنو[٣٢] – في خمسينات القَـرْن الماضي – حـال «الثقافة الأدبيّة» التّقْليديّة السّائِـدَة – آنذاك – في «المُجْتمعات الغَرْبيّـة» بقَولـه: (مـا زال أهْلُهَا يُحِبُّون التّظَاهُـرَ بأنّها كُلُّ «الثّقافة» كما لـو أنّ «النِّظَام الطَّبيعـيّ» غير موجودٍ، وكما لو أنّ تَحَرِّي نِظَام الطّبيعـة ليس له أهميّة في قِيمته الذّاتيّة أو في نتائِجه، وكما لو أنّ البِنَاءَ العِلْميّ للعَالَم الطّبيعيّ لا يُمَثِّلُ في عُمْقِه الفِكْريّ وتَعْقيدِه وصِياغته أجْمل وأشدّ الأعْمال الجماعيّة للعَقْلِ البشريّ إبْهَاراً)، وفي السِّياق نفسه يَصِفُ تشارلـز سنو الأوضـاعَ السّائِدَةَ بين المُثقَّفين في «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» فيقول: (وهكذا يتسامـقُ بِنَـاءُ الفيزيـاء الحديثة، ولكن الرُّؤية التـي يَمْلِكُهَا مُعْظَمُ أشـدّ النّاس ذكاءً في العَالَـمِ الغَرْبيّ حوله مُمَاثِلَةٌ تماماً للرُّؤية التـي كان يَمْلِكُهَا أسْلافُهُم في العَصْرِ الحَجَرِيّ

الحديث). ولو أنّنا أردنا وَصْفَ حال «الثّقافة العربيّة» اليوم لما وَجَدْنَا أفْضل من تلك الجُمَلِ التي وَصَفَ بها تشارلز سنو «المُجْتمعات الغَرْبيّة» في خمسينات القَرْن الماضي. وأمّا زكي نجيب محمود فإنّه يَصِفُ ذلك «التَّغيُّرَ الجِذْرِيّ» الذي طرأ على «الفِكْرِ البشريّ» في القُرُون الثّلاثة الأخيرة بقوله: (كانتْ «الكلمةُ» مَدَارَ الحياة فيما مضى، فأَصْبَحَتْ «الآلةُ» هي المَدَار، وبعِبارةٍ يَسْهُلُ على القُرَّاء حِفْظُهَا نقول: «إنّ النّقْلَةَ الحضاريّة هي من مَرْحَلَةِ الكلامولوجيا إلى مَرْحَلَةِ التّكنولوجيا»؛ و«الكلامولوجيا» هي الكلامُ بكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ به من قَواعِد ومقاييس، و«التّكنولوجيا» هي أجْهِزَةُ الصُّنْعِ بكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بها من علوم، وبالطّبع لم يَخْلُ عَصْرٌ من أجْهِزَةٍ وآلاتٍ، ولا يَخْلُو عَصْرُنَا من جَانِب الكلام، غير أنّ طابع العَصْر مُسْتَمَدٌّ من العُنْصُرِ المُوَجِّهِ لتيّار الحياة، ولقد كان هذا المُوَجِّهُ هو الكلمات في شَتّى صُورِهَا، وأَصْبَحَ مُوَجِّهُنَا اليوم هو الآلات وعلومها)[٢٠].

تلك هي حقيقةُ «التَّحَدِّي» الذي تتصدّى له مُخْتلف الثّقافات الإنْسانيّة في «الأَلْفيّة الثّالثة»، وتلك هي «مُعَادَلَةُ الحضارة المُعَاصِرَة» التي تَسْعَى مُخْتلف الأُمم إلى ضَبْطِهَا، ولا شَكّ أنّ الخَلَلَ البَيِّنَ في تلك التّرْكيبةِ المُعَقَّدَةِ لـ«مُعَادَلَةِ الحضارة» يَشْرَحُ - تِلقائيّاً - الوَاقِعَ الأليمَ الذي يَجْثِمُ على صَدْرِ «الثّقافة العربيّة» ليَحُولَ بينها وبين التّفاعُل مع مُقْتضياتِ «الزّمان»، وشُرُوطِ «المكان»، وتحدّياتِ «الحاضِر»، ومُواصَفَاتِ «المُسْتَقْبَل»؛ وبالتّالي يَمْنَعُ أيَّ جُهُودٍ لتَغْيير ذلك الوَاقِع، أو تَعْديلِه؛ ليكون مُتَجَاوِباً مع احْتياجاتِ «المُجْتمعات العربيّة»، ومُتَنَاغِماً مع قضاياها التي تَزْدَادُ اسْتفحالاً واسْتشكالاً وتأزُّماً، بينما تَزْدَادُ مُمَانَعَةُ ثقافتها لأيِّ مُحاولاتٍ تَهْتَمُّ باكْتِسَابِ خصائِص «عَصْر العَوْلَمَة»، ومُنْطلقات «مُجْتمع المَعْرِفَة».

إنّه من الوَاضِح - أيضاً - أنّ حال «مُثَقَّفي العَالَم العربيّ» لا يَشُطُّ كثيراً عن ذلك الوَاقِع الذي وَصَفَهُ تشارلز سنو في الخمسينات من القَرْن العشرين في أوروبا، بَلْ هو - في رأْيي - أشدّ تَعْقيداً وأَسْوأ حالاً كما سنرى في سِياق هذا الكِتاب؛ ولكن الوَضْعَ في العَالَم العربيّ يَخْتَلِفُ - نَوْعاً ما - عن ما وَصَفَهُ تشارلز سنو فيما يَتَعَلَّقُ بعَدَاءِ «النُّخْبَةِ الأدبيّة» لـ«الحركة العِلْميّة»؛ فالمُثَقَّفون العرب - بشَكْلٍ عامٍّ - لا يُنَاصِبُون «التّقْنية»

العَدَاء، ولا يُحَارِبُون «الحركة العِلْميّة»، بَلْ أغْلبهم يَتَغَنَّى بها في كُلِّ مَحْفَلٍ، ويُنادي بها في كُلِّ مُناسَبـةٍ، ولو كان ذلك من باب «إبْـرَاءِ الذِّمّة» ومُجارَاةِ «رُوح العَصْر» إلاّ أنّ ما تُعانيه «ثقافـة المُجْتمعات العربيّة» من «أُمِّيّـةٍ عِلْميّةٍ» يَجْعَلُهُم يَتَّخِـذُون - في أحْسن الأحوال - مَوقِفاً سَلْبيّاً عَاجِزاً عن دَفْعِ الأُمُور في اتِّجَاهِ تفاعُلٍ حيويٍّ مع قضايا العَصْرِ وهُمُومه.

لقـد بَقِيَـتْ «الثّقافةُ العربيّـةُ» أسيرةَ إرْثِهَا الأدبـيّ، واللّغويّ، والفِقْهـيّ، والوَعْظيّ، والسِّياسـيّ؛ حتّى تلك الطُّرُوحات التي حاولتْ اسْتخدام مُصْطلحاتٍ حديثةٍ كانت تضطرُّ إلـى الانْخِرَاطِ مـن جديدٍ في «البَوْتَقَـةِ الاجْتِرَارِيّة» ذاتهـا لانْعِـدَامِ «الأدوات المَعْرِفيّة» القَادِرَةِ على التّعامُلِ مع «العَصْر» والتّفاعُلِ بحيويّة مع «التّحدّيات»؛ وبذلك ارْتَدَى القديمُ ثوبـاً جديداً، فبـدا المَظْهَرُ مُخْتلفاً، وأمّـا المَضْمُونُ فقد بَقِيَ علـى حاله الكسيح؛ عديمَ الفَاعِليّةِ ومُنْقَطِعَ الأنْفَاس. وهكذا برز على «السَّاحة الثّقافيّة العربيّة» من أَسْمَاهُمْ محمد عابد الجابريّ[٥٩] بـ«المُثقّفين اللّقَطَاء»، وهم من يُمْكِنُ أنْ نُسَمِّيهم «تُجَّار المُصْطلحات» الذيـن تباروا في اسْتيـراد مُصْطلحاتٍ من بيئـاتٍ ذات تجارب مُخْتلفـةٍ، وتنافسوا على تَمْجيدِها وتَقْديسِها، إمّا طمعاً في مَكْسَبٍ سريعٍ، أو تَوَقُّعاً لصيتٍ هَشٍّ، أو جَهْلاً بأُصُولِهَا ومُسْتَنْبَتَاتِهَـا، وحسبوا إنّ بإمْكانهم زِراعتها في تُرْبـةٍ لا تَدْعَمُ خصائِصَهَا، وفي مُناخٍ لا يُوافِـقُ مُكَوِّنَاتِهَا، وتَوقَّعُوا أنّها ستُنْبِتُ زُهُوراً وثِماراً، ولكن - بطبيعة السُّنَنِ الكَوْنيّة - فإنّ ذلك لن يُحَقِّقَ أكْثر من حصاد الرّيح الذي لا يُنْتِجُ إلاّ فَوْضَى، ولا يُخَلِّفُ إلاّ خَسَارا.

وعلـى مدى القَرْنَيْنِ الأخيرَيْن ممّا يُسَمَّى «عَصْـر النّهْضَة» في العَالَم العربيّ كانتْ هناك جُهُودٌ مُتَعَدِّدَةٌ لتَجْديد «الثّقافة العربيّة»، وتَنْويع رَوافِدِهَا، وإضْفَاءِ مَلامِح عَصْريّةٍ عليهـا، ولكن الوَاقِع المُشَاهَد يُؤكِّدُ أنّها جُهُودٌ بَاءَتْ بالفشل، وذلك بالرّغْم من إسْهاماتٍ قَيِّمَةٍ لقَامَاتٍ فِكْريّةٍ، من أبْرزها مالك بن نبيّ وزكي نجيب محمود ومحمد عابد الجابريّ، تفاعلـتْ - بعُمْـقٍ وجِدِّيَّـةٍ وأصَالَةٍ - مع «الهَـمِّ الثّقافيّ» فـي النِّصْفِ الأخير مـن القَرْنِ العشريـن في مُحاولاتٍ لفَحْصِ «خريطة العَالَم الجديد»، وإجْـرَاءِ عمليّات «نَقْدٍ ثقافيٍّ» تَهْتَـمُّ بتَحْليـلِ جَوانِب الوَهَن، وأسْبـابِ فَشَلِ «الثّقافـة العربيّة» في تَحْقيـقِ «الاسْتِجَابَةِ» الفَاعِلَةِ لـ«التَّحَدّي» الذي يُجَابِهُ مُجْتمعاتِها.

٣-٦) دون كيخوته و«الثّقافة العربيّة»:

لعلّه من المُناسِب أنْ نَتَوَقَّفَ هنا مع زكي نجيب محمود في مُحاولاتِه لسَبْرِ أغْوَارِ «المُعْضِلَة الثّقافيّة» التي تَنْتَصِبُ أمام الأُمّة كعَائِقٍ رئيسٍ في طريق «التَّحوُّلاتِ النَّوْعيّة» اللّازِمَةِ للّحَاقِ برَكْبِ العَصْر، ويرى زكي نجيب محمود[٢٠] في قِصَّةِ «دون كيخوته» (دون كيشوت) تَعْبيراً عن الحَدِّ الفَاصِلِ بين عَصْرَيْن في أوروبا؛ «العُصُور الوسْطى» و«العَصْر الحديث»، ويَتَلَمَّسُ فيها تَرْميزاً لجوهر «المُعْضِلَةِ الثّقافيّة» القَائِمَةِ في «الفِكْرِ العربيّ». وقبل أنْ نَنْطَلِقَ إلى اسْتنتاجات زكي نجيب محمود لا بُدَّ أنْ نَتَوَقَّفَ - أوّلاً - أمام وَصْفِهِ لشَخْصِيّة «دون كيخوته» حيث يقول: (هذا الفارِس الأُسْطوريّ الذي مَلأتْهُ الأوهام، حتى لقد امْتَشَقَ سيفه، وأَدْرَعَ بدروعِه، وراح يُقاتِلُ طواحين الهواء، ويُهاجِمُ قُطْعَانَ الغَنَم، حَاسِباً إيّاها قِلاعاً وجيوشاً). يَتَأَمَّلُ زكي نجيب محمود حال دون كيخوته في مُحاولاتِه للمُلاءَمَةِ بين ثقافتِه وبين وَاقِعِه فيقول: (دون كيخوته قرأ قِراءةً مُسْتَفيضَةً عن حياة الفُرْسان كما كانتْ في العُصُور الوسْطى، وتَشَبَّعَ بما قرأ حتى اعْتَزَمَ أنْ يحْيا فَارِساً على مِنْهَاجِهِم، فلو كان دون كيخوته يعيشُ في قَلْبِ العُصُور الوسْطى مع سَائِر الفُرْسان عندئذٍ، وسلك كما سلكوا، لما كانتْ هناك مُفارَقةٌ تُلْفِتُ النَّظَر، لكن تلك العُصُور كانتْ قد جاوزتْ نَهَارَهَا وانْحدرتْ إلى غُرُوبِهَا، فإذا ما أراد إنْسانٌ ساعة الغُرُوبِ أنّ يَرُدَّ الزّمن إلى ساعة الظَّهيرة التي انْقَضَتْ وانْقَضَى أوانُها، كان ذلك هو العَبَثُ بعينه لأنّه يُحاولُ المُسْتحيل).

تَتَّضِحُ أبْعَادُ «الإشْكاليّة الثّقافيّة» في «الفِكْرِ العربيّ» في الصُّورةِ الهزليّةِ التي يَصِفُهَا زكي نجيب محمود بقوله: (كان دون كيخوته في سَعيه الوَاهِم تَجْسيداً لتُرَاثٍ مَكْتُوبٍ، فأخذ يَلْتَمِسُ له في حياة الوَاقِع شبيهاً يُؤيِّدُهُ ويَحْميه، ولأَمْرٍ وَاضِح المَرْمى، جعله المُؤلِّفُ رجلاً نحيلاً ضعيفاً، أَثْقَلَ جَسَدَهُ بدروعٍ لم تُخْلَقْ إلاّ لأجْسَادٍ قويّةٍ سليمةٍ، فازْدَادَ هُزَالُهُ هُزالاً وهو تحْت دروعِه الثِّقَال، ولأَمْرٍ وَاضِحٍ كذلك، جعله المُؤلِّفُ يَرْكَبُ حماراً عليلاً، ويَحْسَبُ أنّه يَعْتَلِي جواداً كجياد أسْلافِه من الفُرْسان، فكانت كُلُّها رُمُوزاً مُكَثَّفَةً تَصْرُخُ بالدّلالةِ على أنّ أوان الفروسيّة قد فات ومات، ومن أراد إحْياءَهُ في غير عَصْرِه، كان كمن أراد أنْ يُخْرِجَ من المَاءِ شُعْلَةَ نار).

إنّ دَلالات تلك الصُّورة الهزليّة تتجلَّى في «الوَاقِع الثّقافيّ العربيّ»، ونحن نتعاملُ مع «العَصْر» بغير أدواته، ونَنْطَلِقُ في آفاقه بغير وسائِله، ونُكَرِّسُ «المُحاولات البَهْلوانِيّة» التي تَسْعَـى إلى إبْقَاءِ «الثّقافة العربيّة» دَاخِلَ الزّمن وخَارِجَهُ في آنٍ وَاحِدٍ. ولذا فإنّ «إشْكَالِيّة الثّقافَتَيْـن» هي أشدُّ عُمْقاً وتغلْغلاً وتَعْقيداً فـي «النَّسيج الفِكْريّ العربيّ» منها في «الفِكْر الغَرْبـيّ»، وبالتّالي فإنّهـا تَحْتَاجُ إلى جُهُودٍ مُكَثَّفَةٍ للتّقْليلِ مـن حِدَّتِهَا، وإلى برامِج وَاسِعَةِ النِّطَاقِ للتّخْفيفِ من وَطْأَتِهَا. بطبيعة الحال هناك دائماً العِبارات الفَضْفَاضَة عن أهميّة «العلـوم» و«توطيـن التّقْنية» فـي مُخْتلف مُنْتدياتنـا ومؤتمراتنا، إلاّ أنّنا نَمُـرُّ عليها مُرُورَ الكِرَامِ لنَنْصَرِفَ إلى ما أَلِفْنَاهُ من الكلام، ولنَحْتَضِنَ قضايانا «التّقْليديّة» و«الاجْتِرَارِيّة» و«الانْبِهَارِيّـة» فـي سِياقاتِنا الثّقافيّـة، وكأنّ الأمْرَ بِرُمَّتِـهِ لا يتجاوزُ فقط مَرْحلـة «إزَالَةِ العَتَبِ» و«إبْرَاءِ الذِّمَّة»!.

مـن مُنْطَلَقِ النّزاهـة الفكْريّة يَنْبَغِـي أنْ نَعْتَرِفَ بـأنّ هذا الحال ليـس بمُسْتَغْرَبٍ على «ثقافـةٍ» تَأَسَّسَـتْ على «الفِكْرِ الأدبـيّ»، وتراكمتْ عليها – عبْـر قُرُونٍ – مُعْطياتُـه وأنْسَاقُه، وطَغَـتْ تفاعُلاتُه في أجْـواءٍ هَيْمَنَتْ عليها السِّياسـةُ وصِرَاعَاتُ السُّلْطَة؛ ولـذا فإنّه إذا كان طَـرْحُ تشارلـز سنـو لـ«إشْكَاليّة الثّقافَتَيْـن» في «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» صحيحـاً بالرّغْم من أنّهـا صَانِعَـةُ «العلوم الحديثـة» والمُمْسِكَةُ بزِمَـام «التّقْنية المُعاصِرَة»، فإنّـه – بالضّرورة – «حالـةٌ ثقافيّـةٌ» مُسْتَفْحِلَـةٌ في وَاقِـع «الثّقافة العربيّة». أمّـا الفَرْقُ بيننـا وبينهم فهو في جُرْأَتِهم علـى تَشْخيصِ «الإشْكَاليّة»، وإدْراكِهم لآثارِها السّلْبيّـة، وحِرْصِهم على تَجْسيرِ «الفَجْـوَةِ» و«الجَفْوَةِ» بين «الثّقافَتَيْن»، وسَعْيِهم لتَأْمينِ «التَّجَانُسِ الثّقافيّ» بين مُجْتمعهم وخصائِص عَصْره؛ وأمّا نحن فقد اسْتَبْعَدْنَا «ثقافة العلوم»، ونظرنا إلى «العلوم والتّقْنية» علـى أنّها مُجَـرَّدُ أدواتٍ وآلاتٍ ومَوادٍّ اسْتِهْلاكِيّةٍ ممّا يُمَثِّلُ «ظُلْمَاً ثقافيّاً» للعلوم نَدْفَعُ ثمنه غَالِيـاً لفشلنا في التّعامُلِ مع الجوهرِ الحقيقيّ لـ«الحركة العِلْميّة»، وآثارِها المُهَيْمِنَةِ على حَيواتِ البشر وأشْكَالِ الحجر.

٣-٧) الدَّوائِرُ المُنْغَلِقَة في «الحركة الثّقافيّة العربيّة»:

إنّ الإحْبَاطَ، أو ما وَصَفَهُ برهان غليون[١٨] بـ«المِحْنَة»، الذي أصاب المُثقَّفين العرب بمُخْتلف مدارِسهم الفِكْريّة وتوجُّهاتهم السِّياسيّة جعل أحد أبْرز نتائِجها ما وَصَفَهُ غليون بقوله: (الانْكِفاء على الذَّات وعلى العمل الثّقافيّ والإبْداعيّ والبَحْث العِلْميّ المُتَجَرِّد عن أيِّ الْتِزامٍ اجْتماعيٍّ أو سياسيٍّ بالمَعْنَى الوَاسِع للكلمة، مع السَّعي إلى تَحْرير «الثّقافة» من «السِّياسة» أو تَأْكيدِ انْفصالِها عنها. والمَقْصودُ هنا وَضْعُ «السُّلْطَة الثّقافيّة» في مُوَاجَهَةِ «السُّلْطَة السِّياسيّة» وكخَصْمٍ لها أو بديلٍ منها)[١٨]. إنّ هذا الرّأْي، الذي يَطْرَحُهُ غليون، يعودُ بنا إلى طُرُوحَاتِ الغَالِبيّةِ الكَاسِحَةِ من المُثقَّفين العرب لنعود دوماً إلى «نُقْطَةِ البدْء» من حيث نَدْري ولا نَدْري؛ فـ«إشْكَاليّةُ التّنْمية» لا تَكْمُنُ في العَلاقَةِ بين «الثّقافة والسِّياسة» أو «المُثقَّفُون والسُّلْطَة»، ولكنّها تَكْمُنُ في انْفِصَامِ «الثّقافة» عن «التّنْمية» بمعانيها الرّحْبَةِ وآفاقِهَا الحقيقيّة وآليّاتِهَا الفَاعِلَة؛ فانْصَرَفَ المُثقَّفون العرب إلى أفْلاكِهِم الخَاصّةِ يَجْتَرُّون إبْداعاتِهم التّقْليديّة أو الحَدَاثيّة، ومنْهم من وجد في الأنْشِطَةِ العِلْميّة والتِّقنيّة المُجَرَّدَةِ مَلْجأً يَحْسَبُ أنّ فيه المَخْرَجَ من الأزْمَة، ولكن بَقِيَ كُلُّ ذلك بمَنْأىً عن حقيقة «التَّحَدِّي»، وبعيداً عن «بَوْتَقَةِ التّنْمية» بضروراتِها الفِكْريّة والثّقافيّة والاجْتماعيّة. إنّ «الخِطَابَ الوَصْفيّ - السَّرْديّ - التّنْظيريّ»، الذي تَزْخَرُ به «الثّقافةُ العربيّةُ» وتَفْخَرُ، حَافَظَ على جوهرِه وأصالتِه وإنْ تَغَيَّرَتْ الأشْكَالُ والقَوالِبُ بتغيُّر الظُّرُوفِ والأشْخَاصِ والمُشْكلات، وهذا ما يُؤَكِّدُهُ برهان غليون عندما يقول: (وهكذا حَلَّتْ محلّ الأدبيّات العقائِديّة القديمة، التي كانتْ تُسَيْطِرُ على إنْتَاجِ المُثقَّفين، المقالات التّحْليليّة الاسْتراتيجيّة والسّياسيّة والاجْتماعيّة)[١٨]. وهكذا تَحُومُ «الثّقافةُ العربيّةُ» - في أزْمَتِهَا المُتَفَاقِمَةِ - حول الحِمَى دون أنْ تَقَعَ فيه، وتَسْتَمِرُّ في مُواصَلَةِ نَدْبِهَا على وَاقِعِهَا، وتُواصِلُ رِحْلتَهَا في دَوائِر مُنْغَلِقَةٍ على نفْسها، ولا شَكّ أنّ هذا نِتَاجٌ طبيعيٌّ لـ«ثقافةٍ» تُهَيْمِنُ عليها «ثقافةُ اللّفْظ» و«زَخْرَفَةُ الكلام»، وتَأْسِرُهَا المُفْرَدَاتُ والجماليّاتُ الإنْشائيّة حتى ولو كانتْ على نَسَقِ صَاحِبِنَا الذي اعْتَقَدَ أنّه أتى بجديدٍ عندما وَصَفَ حالَه وحال رِفاقِه فأَنْشَدَ يقول: (**كأنّنا والمَاءُ من حولِنا ... قَوْمٌ جُلُوسٌ حولهم مَاءُ**)!.

وفي السَّعي نحو تَشْخيص «وَاقِعِ الثّقافة العربيّة» وهَشَاشَةِ أحْوالِهَا، يقولُ شاكر مصطفى: (الفِكْـرُ العربيّ الـذي قَدَّمَهُ المُثقَّفون سَواءً فـي ما بين الحَرْبَيْن أو بعْـد الحَرْب الثّانية حتى أوائِـل السّبعينـات، وسَواءً كان قوميّاً أمْ غير قوميٍّ، أمْ ثقافيّـاً، كان يَعِدُ النّاس بأعْظَم الآمال وبنتائِـج وَاسِعَةِ الطُّمُـوح وأبْعَادٍ من السّعادة مُزَيَّنَةً بالنّجوم. لم يكنْ يَدْري حتّى المُثقَّفون ذوو البصائِـر أنّـه كان يعيشُ في أرْضِ الأحْلام، وأنّ الوَاقِعَ الـذي ظَنّهُ مَكِيناً ثابتـاً إنّما اخْتَرَعَهُ بنفْسِـه لنفْسِـه ليُؤمِنَ به، وقِوامُهُ آمالٌ رومانسيّةٌ وفِكْرٌ ضَحْـلٌ مُتَهافِتٌ أو مَنْقُولٌ بالحَرْفِ عن وَاقِـعٍ غَرْبيٍّ مُغَايـر)[١٨]. بطبيعة الحال لم يَتَغَيَّرْ شيءٌ في «البِنْيَـةِ الثّقافيّة العربيّة»، وما زال «التّكْويـن الثّقافيّ العربيّ» يُحَافِظُ علـى مَلامِحِهِ الأساس، ولم تُؤثِّرْ فيـه الفَواجِعُ المُتلاحِقَةُ فـي التّاريخ العربيّ الحديـث، ولم يُبَدِّلْ من تَرْكيبتِهِ تَفَاقُمُ الأحْـوالِ الاجْتماعيّة والاقْتصاديّة والإنْتاجيّـة والمَعْرفيّة؛ وما زال «الفِكْرُ الأدبيّ»، بتَنْظيرِهِ المُجَـرَّدِ وبلاغته الآسِرَةِ وعُمُوميّاته الهَشّـة، يُهَيْمِنُ علـى صُنْعِ القرار في «المُجْتمعـات العربيّة»، ولذا فإنّ وَاقِعَهَـا أشدّ وَطْأَةً من وَصْـفِ تشارلز سنو لحال «المُجْتمعـات الغَرْبيّة» عندما قال إنّ النُّخَـبَ الأدبيّة: (لا يَصْنَعُون القرار، ولكن كلماتهم تَنْسَابُ بسهولةٍ إلى آذان صَانِعي القرار)[٢٢].

من المُهِمّ – أيضاً – أنْ نُؤكِّدَ هنا أنّنا نَظْلِمُ «المُثقّف العربيّ» عندما نَتَوَقَّعُ منه أنْ يُحْدِثَ «نَقْلاتٍ نَوْعيّةً» كُبْرى في حياة مُجْتمعاته؛ فانْصِرَافُهُ عن الدِّراسة الموضوعيّة لـ«إشْكَالات التّنميّـة» مُتَوَقَّـعٌ وهو الذي وُلِدَ ورَضَعَ وتَرَعْرَعَ في «ثقافـةٍ» لا تَحْمِلُ مُقَوِّمَاتِ عَصْرِهَا، فهو مُغَيَّـبٌ تماماً عـن طبيعة «مُقْتضيات التّنْمية» وآليّاتِها وفِكْرِهَـا «العِلْميّ – التّقنيّ»، وقديماً وحديثـاً قالوا: (فَاقِدُ الشّيء لا يُعْطيـه). إنّ هذا «المُنَاخَ الفِكْريّ الاجْتِـرَارِيّ» الرَّاكِدَ هو المَسْؤول الأوّل عن وَأْدِ الجُهُودِ السَّاعِيةِ إلى «التَّفاعُلِ التّنْمَويّ» بكُلِّ أبْعَادِه، وهذا ما وَصَفَهُ مالك بن نبيّ – بِدِقَّةٍ – عندما أعْلَنَ: (إنّ جَوْهَرَ المَسْألَةِ هو مُشْكِلَتُنَا العَقْليّة، ونحن لا زلنا نسيـرُ ورؤوسنا في الأرْض، وأرْجُلُنَا في الهواء، وهـذا القَلْبُ للأوضاعِ هو المَظْهَرُ الجديدُ لمُشْكِلَةِ نَهْضَتِنَا)[٢]. أمّا أبْرَزُ مَعَالِمِ الوَهَنِ والعَجْزِ في «الثّقافة العربيّة» فيتمثَّلُ في الأزْمَةِ المُحْتَدِمَةِ في ما يُعْرَفُ بـ«جَدَلِيّة الأصَالَةِ والمُعَاصَرَة»، أو «ثُنَائِيَّة التُّرَاثِ والحَدَاثَة»، وهي إشْكَالِيّةٌ تَقَعُ في صميمِ «إشْكَالِيّة التّنْمية»، وسنُفْرِدُ لها الفَصْلَ التّالي.